544

٥٤٤

HARLEQUIN

عبير

www.liilas.com
الشجرة الطيبة

الهوى المكتوم

بيتي نيلس

الهوى المكتوم

بيتي نيلس

«لم اتعود مقابلة الرجال في الشوارع.»

أجاب الدكتور، بينما تيرساليس بهدوء يثير الغيظ: «لا، كلا. كلا بالطبع. ولكنك امرأة جميلة يا اوجيني، وفي بلاد غريبة لا تعرفين لغة أهلها. ثم انك، واسمحي لي أن اقول، خطرين للغاية.»

فقالت بحدة: «هذا صحيح تماماً، فانا أستطيع العناية بنفسي. واذا كنت تظنني بذلك الشكل، فلا ادري لماذا تقدمت الى هذه الوظيفة.»

لبنان: ٣٠٠٠ ل.ل - سوريا: ٦٠ ل.س - الكويت: ٧٥٠ فلس - البحرين: ١ دينار - قطر: ١٠ دراهم - السعودية: ١٠ ريالات - الامارات: ١٠ دراهم - الاردن: ١,٥ دينار - مصر: ٢,٥ جنيه - المغرب: ٨ درهم مغربي - سلطنة عمان ١ ريال.

الهوى المكتوم

بيتي نيلس

«دعي قلبك يتحكم في عقلك الحذر المتبصر ولو مرة واحدة فقط...»

هل بإمكان أوجيني قبول هذه النصيحة؟ لقد علمتها نشأتها الريفية أن تكون عملية... لا أن تنساق خلف أحلام شاعرية عن شاب وسيم. ولكن لقاءً بالصدفة ذات يوم ربيعي كثيف الضباب، غيّر كل ذلك. فقد كان الجراح المشهور ايديريك ريجناتيرساليس رجلاً غير عادي... فابتسامة واحدة منه جعلت حياة أوجيني أكثر اشراقاً ومليئة بالاحتمالات المثيرة. ولكن هل من الممكن، مع وجود سافيرا الجميلة بجانبه، أن تكون مشاعر ايديريك نحو أوجيني أكثر من مجرد مشاعر زملاء في عمل واحد؟

انتبه ألا تبتاع هذه الرواية من غير غلاف لأنها قد تكون مسروقة، فيجب إبلاغ الناشرين لأن الكتاب الذي لم يبع، يجب إتلافه، فأي من الكاتبة أو الناشرين لم يتقاضوا ثمناً لهذه النسخة المسروقة.

العنوان الأصلي لهذه الرواية بالانكليزية:

A SECRET INFATUATION

Copyright © by Betty Neels 1994

ISBN 0-263-78813-x

Mills & Boon first edition October 1994

عنوان الطبعة العربية الأولى عن دار م. النحاس

الهوى المكتوم بقلم بيتي نيلس

ترجمة بلقيس حوماني

سلسلة قلوب عبير ٥٤٤

حقوق النشر باللغة العربية محفوظة ومحصورة في جميع البلدان لدار م. النحاس لتوزيع الصحف والمطبوعات – بيروت (دار م. النحاس) بترخيص من هارلكوين انتربرايزس ليمتد (Harlequin Enterprises Limited).

جميع الحقوق محفوظة، باستثناء استعماله في أي مرجعية، يمنع استنساخ هذا الكتاب أو استعماله كلياً أو جزئياً بأي شكل وبأي جهاز من الأجهزة الالكترونية أو الميكانيكية أو الوسائل الأخرى، المعروفة الآن أو التي يتم في ما بعد اختراعها، بما في ذلك الوسائل الزيروغرافية والتصوير والتسجيل أو تخزين أي معلومات منها أو استعادتها بأي جهاز من الأجهزة، من دون الحصول على إذن من الناشر.

كل شخصيات هذا الكتاب ليس لها وجود خارج خيال الكاتبة، وليس لها أية علاقة بأي شخص قد يصدف ويتشابه اسمه مع أحد الأسماء في الكتاب ولا تستند شخصيات الكتاب، أو الأسماء التي تحملها إلى أية شخصية تعرفها، أو لا تعرفها الكاتبة، بل كل أحداث الرواية هي من نسج الخيال الصرف.

العنوان: دار م. النحاس لتوزيع الصحف والمطبوعات ـ بيروت ـ لبنان شارع فردان بناية رضوان الطابق التاسع. ص.ب: ١١/٩٧١٨ ـ فاكس: ٧٤٣٦٣١ (٠١) ـ هاتف: ٧٤٣٦٣٣ ـ ٧٤٣٦٣٤ (٠١) ـ ٢١٦٦٩٣ (٠٣)

عزيزي القارىء

يسرنا أن نضم الى سلسلة عبير، سلسلة جديدة بعنوان قلوب عبير. ويهمنا أن ننشر هذه السلسلة بغية ارواء شغفك للقراءة وحبك لمطالعة أدب بات الأدب الأكثر رواجاً في عالم اليوم.

ونحن، إذ ننشر اليوم هذه السلسلة الجديدة، نعدك دوماً وكسابق عهدنا، بانتظام اصداراتنا من قلوب عبير بمعدل ٥ روايات شهرياً لتكون سلواك في أوقات متعتك الخاصة.

كما نعدك ببذل الجهد المتواصل من أجل إطلاعك دائماً باللغة العربية على أحدث ما يصدر في هذه السلسلة العالمية وعن لغة الأصل: الانكليزية.

إن رفع وتيرة الاصدار والزيادة في تنويع المواضيع وألوانها إنما هما هاجسنا الدائم.

ولا تنس يا عزيزي القارىء أن طبعة قلوب عبير هذه التي أردناها لائقة بك وبذوقك، إنما هي النسخة الأصلية.

وقوفك إلى جانبنا، إنما يعبر عن اخلاصك لنفسك وذوقك وحرصاً على وقتك الذي نوظفه لك في مجال أدبي ثقافي، مفيد وممتع.

إن وقوفك معنا يوفر لنا الدعم والمناخ اللذين لا بد منهما للمضي قدماً في رحلة العطاء الدائم والتجديد والتنويع...

الناشر

الفصل الأول

مدّت أوجيني سبنسر الباهرة الجمال بقوامها الرائع وعينيها الداكنتين وشعرها القاتم، مدت يدها بضيق تسكت المنبه بجانب السرير، ثم نهضت من فراشها. وضعت قدميها في خفيها، وارتدت معطفها المنزلي، ثم توجهت إلى حيث النافذة تلقي نظرة إلى الخارج حيث كان الضباب في ذلك الصباح الباكر من شهر نيسان (ابريل)، يحجب الأراضي والصخور الشاهقة، رغم أنه كان يتبدد شيئاً فشيئاً تحت أشعة الشمس الدافئة. أومأت برأسها راضية وهي ترى أن ليس ثمة مشكلة في توصيل أبيها بالسيارة إلى إكزيتر. إن بامكانها أن تسلك طريق مورتون هامبستيد عبر الأراضي تلك.

كان ذلك الطريق موحشاً في أغلبه، ولكنها ولدت ونشأت في دارتمور ما جعلها تألف هذه البراري الفسيحة بضبابها المفاجيء وجوها الشتائي العنيف. كان والدها قد أمضى مدة طويلة مدير مدرسة، وكان يزور القرى النائية رغبة منه في مساعدة أهلها، يساعده في ذلك اثنان من الاساتذة. وعندما تركت البيت لكي تتعلم مهنة التمريض ثم تصبح رئيسة قسم في مستشفى لندن للتعليم، كانت تعود إلى البيت في كل فرصة تسنح لها، إلى أن أصيب والدها فجأة بنوبة قلبية حادة وضعت حداً لعملها التمريضي، إذ أنه بعد عدة أسابيع من العلاج في المستشفى لم يعد باستطاعته العمل

قبل فترة طويلة. وهكذا أعيد إلى البيت لكي يستعيد عافيته ببطء ما جعلها تستقيل من عملها وتعود إلى البيت لتساعد أمها فتحمل عبء أعمال المدرسة، وتمرض أباها وتساعد الاستاذ واطس الذي كان أرسل ليقوم بعمل أبيها في المدرسة وكان هذا شاباً متحمساً رغم أنه لم يكن لديه فكرة عن الحياة في القرى وخاصة الحياة في قرية دارتمور، حيث أنه كان قد نشأ في المدن الكبرى الداخلية.

ارتدت أوجيني تنورة من التويد وقميص فوقه كنزة وقد رفعت شعرها على قمة رأسها بشكل عشوائي ثم نزلت بعد ذلك إلى المطبخ لتفتح الباب للكلب تايغر والهرة سمارتي ومن ثم وضعت ابريق الشاي على النار.

كانت المدرسة حيث يقيمون تبعد عن القرية مسافة قصيرة فهي في منتصف الطريق بين دارميت وتو بريدجس، وكانت عبارة عن منزل متين البناء يحتمل مواجهة الأنواء الطبيعية ومؤثثاً بشكل مريح وكان المطبخ قديم الطراز خالياً من الوسائل العصرية إنما كان يحتوي على خزانة مثقلة بالأطباق والصحون الصينية وذلك بشكل شبه عشوائي.

وأخذت أوجيني تروح وتجيء كالعادة، فأيقظت والديها، ثم أعدت مائدة الإفطار. كان الوقت ما زال مبكراً ولكن كان أمامها مزيداً من الواجبات المنزلية عليها أن تقوم بها قبل أن يخرجا.

نزلت أمها أولاً، وهي امرأة فارعة الطول كابنتها وما زال في وجهها آثار جمال وشباب.

أخذت من ابنتها طبق البيض باسمة وهي تقول: «اذهبي

أنت فاطعمي الدجاجات. إن أباك متعب قليلاً وبالتالي عليك أن تقودي السيارة بحذر يا عزيزتي.»

ففتحت أوجيني باب الحديقة قائلة: «نعم يا أماه، وسنعود في وقت تناول الشاي.»

بعد أن أطعمت الدجاجات، تلكأت في الحديقة فقد كان الكلب تايغر والهرة سمارتي متلهفين إلى إفطارهما، فهما لا يفتآن يدوران حولها وهي تقف ناظرة إلى الانحاء. كانت القرية متوارية عن الانظار خلف تل شديد الانحدار وكان البيت الوحيد الظاهر للعيان هو بيت راعي غنم على بعد نصف ميل. وقالت تحدث الكلب تايغر: «لشد ما يختلف هذا المنظر عن لندن. ولا أدري ان كان بامكاني العودة إلى هناك يوماً ما. ليس لأنني أحب ذلك إنما أظن أن هذا هو ما سيكون في النهاية.»

لقد كانوا غاية في التفهم لها في المستشفى وسمحوا لها بترك المستشفى على أن تعود إليه في أقرب وقت ممكن لتؤدي عمل الشهر المتفق عليه قانونياً في العقد قبل إنهاء عملها، حيث لم يمكنها ذلك بالنسبة إلى مرض أبيها، لقد كان ذلك كله بناء على ما كان قاله الأطباء الذين كانوا عالجوا اباها في نفس ذلك اليوم.

كان الطريق إلى إكزيتر غير ممهد. ذلك أنه لم يكن معتبراً من الطرق الرئيسية وكان يمر ببعض القرى القليلة. وكان عليها أن تبطيء السير في مورتون هامبستيد والتي كان يقوم فيها سوق نشيط وبعد ذلك كان انطلاقها إلى إكزيتر والمستشفى، سهلاً.

أخذت أباها رأساً إلى قسم أمراض القلب حيث سلمته إلى

الممرضة هناك، ثم ذهبت للجلوس في غرفة الانتظار حيث أخذت تقلب الصحف القديمة الملقاة على المنضدة هناك. وقد سرها مجلات الأزياء التي طال ابتعادها عنها في الأسابيع الماضية وهي المولعة بالملابس الجميلة.

بعد انتهاء الفحص الطبي لأبيها، كان هذا قد أصابه التعب فاتجهت به إلى مطعم هادىء حيث حاولت اقناعه بتناول وجبة خفيفة. لقد كان الطبيب المختص راضياً عن نتيجة الفحوصات ما جعله يطمئن إلى أنه بعد أسابيع قليلة بامكانه العودة إلى مزاولة بعض الأنشطة الخفيفة في المدرسة والتي يتوق إلى القيام بها بعد أشهر من النقاهة. وأثناء تناولهما الطعام، قال بخصوص هذا الموضوع: «شهر آخر وسيكون بامكانك بعده أن تعودي إلى مستشفاك، يا عزيزتي. أتظنين أن بامكانك أن تعودي إلى نفس القسم الذي كنت تعملين فيه.»

فأجابت وهي تتناول لقمة من الملفوف: «لا أظن ذلك، يا أبي، ولكنني سأكون مسرورة بالتغيير.»

ولكن هذا لم يكن صحيحاً تماماً ذلك أنها كانت تحاشت اخبار أهلها عن أن المستشفى كان سمح لها بتحديد إجازتها وذلك منذ أكثر من شهرين... ولا بد أن مركزها الآن قد احتله سواها، وهذا يعني أن عليها أن تترك العمل بعد القيام بشهر العمل المتعارف عليه قانونياً وذلك في أي قسم يحتاجونها فيه ثم بعد ذلك عليها الرحيل، ولكنها ستخبر والديها بهذا الأمر عندما يحين الأوان لذلك.

عندما عادا إلى البيت، شعرت بالسرور لكون الجو ما

زال مقبولاً رغم أن السحاب كان متراكما من جهة الغرب وهو يمتد ببطء ليغطي وجه السماء.

كانت أمها بانتظارهما وقد مدت مائدة الشاي بينما كانت النار تشتعل في مدفأة غرفة الجلوس وبعد ذلك توجهت أوجيني على الفور إلى المطبخ، حيث أخذت تطهو. وبينما كانت تقطع الخضر وتقشر البطاطا، أخذت تفكر في مستقبلها كانت في الخامسة والعشرين من عمرها وغير مرتبطة عاطفياً. لقد كانت قدمت إليها عروض كثيرة للزواج بعضها جيد تماماً، ولكنها مع أنها لم تكن واثقة تماماً من نوع الرجل الذي تحب ان تتزوجه فقد كانت واثقة من أنها لم تقابله بعد. وإلى أن يحدث ذلك عليها أن تكسب راتبها وهذه المرة في مستشفى قريب من بيتها. لقد كانت تحدثت إلى الطبيب الاختصاصي فأنذرها بأن من المحتمل أن يصاب أبوها بنوبة قلبية ثانية وفي هذه الحالة كان على الاستاذ واطس أن يعود. وتمنت لو أن ذلك لا يحدث. صحيح انه رجل كبير بما فيه الكفاية على ما يبدو، ولكنه بالنسبة إلى ادارته للمدرسة كانت آراؤه خاطئة تماماً. وبجانب ذلك فقد ظهر عليه جلياً اعجابه بها ثم أنه من وجهة نظره الخاصة على الأقل أي شيء أفضل من أن يتزوج من إبنة رئيسه ومن ثم يستلم هو الادارة؟

قالت تحدث الحيوانين بينما كانا ينتظران عشاءهما بصبر: «ولكنني لن أقبل شيئاً كهذا.»

عندما استيقظت في صبحية اليوم التالي، كان الجو ممطراً. وكانت الرياح قد هبت أثناء الليل مرسلة غيوماً منخفضة كانت تتسابق في السماء. استمعت إلى صوت

المذيع في الراديو يخبر بأن ثمة جواً سيئاً في طريقه إليهم من المحيط الأطلسي. فخرجت تطوف في أنحاء الحديقة تطعم الدجاج وتحكم اقفال أبواب الحظيرة وعندما عادت أخبرتها أمها بأن الاستاذ واطس قد اتصل هاتفياً ليقول انه أصيب ببرد شديد ويسأل عما إذا كان بامكان أوجيني أن تقوم ببعض زياراته الروتينية بدلاً منه؛ وكانت هناك عدة أماكن وهكذا قررت أن تستقل سيارتها باتجاه رجل عجوز يعيش وحيداً في كوخ صغير منعزل حتى عن أقرب جيرانه. وكان الطريق إليه وعراً ما جعلها تصمم على الذهاب إليه أولاً بالسيارة اللاند روفر وحيث أن الاستاذ واطس لم يكن على معرفة واضحة بظروف الرجل العجوز، فقد أخذت له مؤونة من الحليب والخبز ومختلف أنواع معلبات الطعام التي قد يحتاجها. كما أخذت له أيضاً الصحيفة الأسبوعية إذ أنها سبق ولاحظت أنه يحب المطالعة.

كان السيد بامبر العجوز في حالة حسنة تماماً وقد سره مرآها. أخبرها بأن صحته ممتازة ويتطلع إلى الوقت الذي يصبح فيه الجو أكثر دفئاً فيتمكن من الخروج.

سلمته أوجيني ما أحضرته إليه. وكذلك الصحيفة ثم دخلت المطبخ حيث غسلت الأطباق القذرة التي كانت في حوض الغسيل، وصنعت قهوة لهما هما الاثنين، ثم جلست إليه تتبادل معه الحديث. كان يعرف كل شخص في القرية، وهكذا أخبرته بكل ما يدور فيها، ثم ذهبت في سبيلها.

كانت المزارع خارج طريق الأراضي السبخة ولكن الوصول إليها كان لكثر سهولة. تناولت المزيد من القهوة وسألت عن الأولاد واستمعت بصبر إلى مشكلات تافهة،

وأعجبت بجراء وقطيطات حديثة الولادة. أمعنت النظر في ما أروها إياه من حياكة، وأخذت بطريقها مجموعة من الرسائل لإرسالها بالبريد. وعندما عادت إلى البيت كان قد حان موعد الغداء وكان المطر ما زال ينهمر رغم أن الريح قد هدأت.

لم يتحسن الجو في اليوم التالي، وكان موعد اجتماع اتحاد الأمهات بعد الظهر وحيث أن السيد واطس ما زال متوعك الصحة فقد ذهبت إلى قاعة القرية وهي مركز النشاطات الجماعية، حيث صنعت الشاي ودارت بالكيك على المجتمعات وهي تتحدث بما يناسب المقام وتبدي اعجابها بالأطفال وصغار الأولاد وتستمع إلى المشكلات الصغيرة. وفكرت في نفسها متأملة بأن في امكانها أن تكون زوجة مناسبة تماماً لاستاذ يهتم بفعل الخير.

وفي الصباح التالي، كانت الأراضي قد حجبها ضباب كثيف ما جعل السير فيها مخاطرة بالنسبة لأي غريب انما بالنسبة لأوجيني التي ولدت ونشأت في هذا المكان فقد كان مجرد ازعاج فقط. صحيح أنها ليست من الحماقة بحيث تبتعد كثيراً عن القرية، ولكن ما كان يبدو بالنسبة لمسافر عابر مجرد دثار سميك كثيب كان يبدو لها هي مالوفاً تماماً. فكثيراً ما كان الضباب يفاجئها وهي في الأراضي السبخة، فكان كل ما عليها أن تفعل كما قالت مرة لأمها القلقة، هو أن تقف مكانها وتنتظر أن ترى لمحة مما يحيط بها إذ كانت تعرف كل حجر وكل شجرة وأجمة حولها إلى بعد أميال، كما أنها لم تكن تحس بالخوف من السكون العميق الذي يرافق الضباب عادة.

توقف رذاذ المطر عند العصر ولكن كثافة الضباب لم تتغير. وكان موعد الشاي على وشك أن يحل عندما اتصل الاستاذ واطس هاتفياً. كان يسكن في منزل صغير في الناحية الأخرى من القرية. لم يكن بعيداً ولكن الوصول إليه كان صعباً إذا كان يقع في ناحية من تلك الأرض شديدة الانحدار.

استمعت أوجيني إلى صوته القلق، شاعرة بالأسى لأجله. فقد كانت حالته أكثر سوءاً، وكان يشكو متذمراً من أن لا أقراص مهدئة لديه حتى ولا ليمون. كما أن الأسبرين عنده قد نفد.

وقاطعت شكواه التعسة هذه بقولها: «سأحضر إليك كل ما تحتاجه.»

«لن يكون بامكانك الوصول إلي في هذا الضباب.»

فأجابت: «لا تقل هذا سأكون عندك بعد حوالي عشرين دقيقة.»

جمعت بعض الأسبرين وعدة ليمونات، وأقراص لالتهاب الحلق كانت أمها تحتفظ بها في صيدلية البيت، ثم خرجت في تلك الوقت من النهار والذي كان شبه مظلم، وكلمات أمها تستحثها للعودة بأسرع ما يمكنها، ثم تقول: «إنني أعلم بأن في امكانك العثور على طريقك. انتبهي إلى نفسك.»

وجدت أوجيني طريقها إلى القرية بسهولة، حيث كانت أنوار نوافذ المنازل تريها الطريق بشكل غائم ولكنها عندما اجتازتها ابتدأت تصعد الطريق متخذة جانب الطريق بحذر راجية ان يكون الاستاذ واطس قد فكر في أن يضيء جميع أنوار منزله. وسرها أن وجدت أنه قام بذلك فعلاً عندما ابتدأت تصعد الطريق الضيق المتفرع من الطريق العام.

ولم تكن هي تميل إلى الاستاذ واطس ذاك ولكنها شعرت بالأسى لأجله وهي تراه مريضاً تعساً واضح الكراهية لذلك البيت الذي يقيم فيه وتلك الأرض السبخة وكل ما يجعل الحياة بهذه الصعوبة.

قال لها: «لا أدري كيف بامكانكم العيش هنا. لو كنت أعلم، عندما أرسلت إلى هنا أن لا شيء هنا سوى الريح والمطر والضباب...»

كانت أوجيني الآن قد وضعت ابريق الشاي على النار وأخذت تعصر الليمون في ابريق. فأجابته قائلة: «آه، لا تقل هذا. انك تعرف مبلغ جمال هذه المنطقة عندما يكون النهار جميلاً... الهدوء والسلام والمناظر الرائعة، هذا إلى انعدام حركة السير تقريباً.»

صنعت له الشاي وقدمت له الأسبرين الذي أحضرته وكذلك أقراص الدواء ثم قالت له: «إنك تشعر بالانهاك ولكنك ستتحسن في الصباح. والآن اجلس وتناول الشاي ثم خذ حبتي أسبرين واذهب إلى فراشك.»

كانت فتاة عملية بقدر ما كانت جميلة. فقد أعدت المائدة، وملأت قربة الماء الساخن حيث وضعتها في فراشه، ثم عادت إلى خزانة الأطعمة تتفحصها لتقول بعد ذلك: «يوجد هنا الكثير من الطعام، وحالما يصفو الجو، ستأتي السيدة بولارد لكي تراك. سأتصل بك في الصباح لأطمئن على صحتك.»

«ليس ثمة حاجة بك للذهاب. ألا يمكنك الجلوس قليلاً؟»

أجابت: «يا سيدي العزيز، هلا القيت نظرة على الخارج؟ ما أسرع ما سيحل الظلام ويصعب السير في الانحاء.»

«ولكنك عشت هنا طوال حياتك، ولا بد انك تعرفين طريقك جيداً.»

«وهذا هو السبب في أنني ذاهبة الآن. لا تنس أن تأخذ الأسبرين.»

وأثناء عودتها الصعبة إلى منزلها، تذكرت أنه لم يقدم إليها كلمة شكر.

كانت تتمتم قائلة، يا للرجال، عندما توقفت فجأة بعد إذ وصلت إلى الطريق لتصطدم بسيارة كبيرة جداً.

كان بابها مفتوحاً بينما صوت ساخر لرجل يقول: «هو ذا طفل بريء أمامي. هل أصابك ضرر؟» وكانت ذراع بالغة الضخامة قد أمسكت بها في هذا الضباب الكثيف، وبعد ذلك بلحظة كان صاحبها يقف بجانبها. كان قد أبعد ذراعه تلك عنها ولكنها شعرت به يشرف بقامته عليها رغم أنها لم تستطع رؤيته أبداً بوضوح.

قالت تجيبه: «كلا، لم يصبني أي ضرر. هل أنت تائه عن الطريق؟»

«نعم. وكنت أعد نفسي لقضاء ليلة طويلة في السيارة، أما الآن فأنا آمل في الخلاص. إلا إذا كنت أنت تائهة مثلي.»

«كلا، كلا، فأنا أعيش هنا. حسناً، ليس بعيداً من مكاننا هذا، فبيوت القرية متقاربة. إلى أين تريد الذهاب؟»

«إلى بابيني...»

«تعني إلى مكان الاستاذ توم رايلي. ليس بامكانك أبداً الوصول إلى هناك ما لم يتبدد هذا الضباب. من الأفضل أن تأتي معي. إن امي ستستضيفك هذه الليلة وبإمكانك أن تتصل به من بيتنا.»

فسألها: «بيتكم؟ ولكن ربما يوجد فندق أو مكان عام في هذه الناحية؟»

أجابت: «يوجد مكان عام إنما لا يحتوي على سرير للنوم وأقرب نزل من هنا يقع على بعد أميال في هيكسوارتي، وقد اجتزته أنت في طريقك ربما دون أن تراه.» وأضافت بحنان أمومي: «ربما ما كان لك أن تطوف أنحاء دارتمور في مثل هذا الجو إلا إذا كنت تعرف الطريق حقاً.»

«كلا، كلا، كانت هذه حماقة بالغة مني. هل بامكانك صعود السيارة من هذه الناحية؟»

فتلمست طريقها إلى المقعد من ناحية مقعد القيادة بهدوء وعندما استقرت جالسة سألته: «هل السيارة هذه رولز أم بنتلي؟»

«إنها بنتلي.» وكان قد اتخذ مقعده بجانبها فاستدارت تنظر إليه تحت ضوء مصباح السيارة. كان رجلاً كبير الجسم للغاية، وشعره الأشقر يقرب من أن يكون فضياً... كانت الرؤية صعبة، ولكنها مع هذا أمكنها أن ترى أنه كان حسن الشكل.

لم يقل شيئاً وإنما ابتسم قليلاً وهو يقول: «إنني أعتمد عليك يا آنسة...»

«أوجيني سبنسر. وأبي هو مدير المدرسة هنا.» فمد إليها يداً عريضة يصافحها وهو يقول: «إسمي ايديرك ريجنماتير ساليس.»

فصافحته قائلة: «إنك لست انكليزياً... هل أنت سويدي؟ نرويجي؟ هولندي؟»

«هولندي.»

بدا في لهجته الهزل مرة أخرى، فقالت بسرعة: «إن الطريق ينحدر من التل مئات من الياردات أو نحو ذلك، ثم تستقيم بعد ذلك إلى أن تصل إلى القرية. أنظر إلى يمينك فهناك سد عليك أن تبقى قريباً منه قدر امكانك...»

ابتدأ رحلتهما الحذرة، ثم سألها: «هل كنت راجعة إلى المكان الذي كنت جئت منه؟»

«لقد عشت هنا طوال حياتي. وقد اتصل بنا الاستاذ الذي استلم إدارة المدرسة إلى حين شفاء أبي، اتصل يطلب ليمونا وبعض الأشياء الأخرى. إنه يعاني من زكام سيء.»

«ليمون... هل خرجت في مثل هذا الجو، لكي تحضري له ليموناً؟»

«وأسبرين أيضاً. إنه من بيرمنغهام ولم يتعود بعد على نوع الحياة هنا.»

«هذا يمكنني فهمه.»

«الطريق الآن يتحول إلى اليمين. هل لك أن تفتح النافذة من فضلك؟»

وعندما فعل ذلك أخرجت رأسها من النافذة لحظة، ثم قالت: «يوجد جذع شجرة في الزاوية. بالضبط ها هي ذي. استدر قليلاً إلى اليمين، استقم في سيرك. الآن ها هي ذي القرية.»

كانت الأضواء تلتمع خافتة في نوافذ الأكواخ بينما كان ضوء مكتب البريد يرحب بهما ولكنهما سرعان ما عادا إلى الظلام، فقالت تشجعه: «لم نعد بعيدين الآن. لا بد لي من القول إن قيادتك ممتازة.»

فشكرها بهدوء.

وكانت أمها قد فتحت الباب قبل أن تقف السيارة أمام المنزل: «أهو أنت يا أوجيني؟ كيف وجدت سيارة؟»

كانت أوجيني قد خرجت من السيارة إنما أدهشها أن تجد مرافقها قد سبقها في النزول ووقف ينتظر نزولها ثم يغلق الباب في أثرها فاعجبها سلوكه هذا، وأمسكت بكمه قائلة: «فلندخل وستكون السيارة هنا في أمان.» ورفعت صوتها تخاطب أمها بقولها: «إن معي شخصاً كان أضاع طريقه.»

حدقت أمها باتجاههما قائلة: «أدخلا. يا لك من رجل مسكين. لا بد أنك متعب وجائع.»

ومدت يدها ترحب به عندما وصل الإثنان إلى الباب، وهي تقول باسمة: «إنني والدة أوجيني. إننا نرحب بك في المكوث هنا إلى أن ينجلي الضباب، إذ أن الجو ينبيء بعاصفة من الغرب فثمة أمل في أن ينجلي عند الصباح.»

كانا واقفين في الردهة حيث خلعت أوجيني معطفها الواقي من المطر بينما كانت الأم تتابع قائلة: «إننا بانتظاركما لتناول الشاي، فتفضل وتعرف إلى زوجي.»

«إنك بالغة اللطف. هل بامكاني احضار حقيبتي من السيارة أولاً؟»

«طبعاً. أحضر أي شيء قد تحتاجه أثناء الليل. إن لدينا العديد من الغرف في المنزل ويمكنك أن تستعير أي شيء...»

وكان قد ابتعد، فاغتنمت الأم الفرصة لتقول لابنتها: «يا له من رجل هائل الحجم. أين وجدته يا عزيزتي؟»

«تحت منزل السيد واطس مباشرة. في أي غرفة علي أن استضيفه يا أمي؟»

«في الغرفة التي في الزاوية إلى الخلف. إنه ليس انكليزياً أليس كذلك؟»

«إنه هولندي وهو ذاهب إلى بابيني.» وعاد هو في هذه الأثناء، فقالت له السيدة سبنسر: «إنك ستحتاج إلى الاتصال هاتفياً وهو في مكتب زوجي.» وفتحت الباب قائلة: «أدخل إلى غرفة الجلوس عندما تفرغ من ذلك.»

وهكذا كان لديها بعض الوقت لتخبر زوجها عنه قبل أن يعود لكي تقدمه إلى زوجها، ولاحظت أوجيني أن الرجلين قد سادهما الانسجام معاً. وعندما صدرت عن أبيها ملاحظة يقول فيها أنهم ما زالوا يعيشون في العصر البرونزي وذلك في اشارة منه إلى الأراضي السبخة في المنطقة، تلقى جواباً من ضيفهم تضمن، ليس معرفته بكل ذلك فقط، بل اهتماماً حقيقياً به كذلك. وقد تناولوا الشاي حول المدفأة بتمهل بينما كان السيد سبنسر يشرح نظريته عن الأكواخ الحجرية وذلك التاريخ الطويل للأراضي السبخة.

سرها أن ترى أباها يبدي مثل ذلك الاهتمام وكانت أوجيني تفكر بذلك وهي تعد العشاء في المطبخ. وأثناء تناول الطعام، تحوّل الحديث ليتناول كل موضوع تحت الشمس. ولم تدرك إلا وهي تتأهب للنوم أن ضيفهم لم يكد يخبرهم شيئاً عن نفسه. إنه قادم من هولندا وهو طبيب. هذا كل ما قاله لهم، فهم لا يعلمون عنه أكثر من ذلك. هل هو يعيش حالياً في انكلترا؟ هل هو يمضي اجازة؟ لماذا كان

ذاهباً إلى بابيني أم تراه يعمل في أحد مستشفيات لندن؟ وقبل أن تستسلم للنوم، تساءلت، أتراه متزوجاً؟

وفي الصباح كان الضباب قد تبدد إلى حد يسمح بقيادة السيارة بحذر كاف. وبعد أن تناول ضيفهم طعام الافطار بشهية تامة كرر شكره لهم ونيته في الرحيل بأسرع ما يمكن.

وقالت أوجيني بلهجة واقعية: «حسناً، إياك أن تسلك طرقاً غير رئيسية. هنالك أماكن كثيرة تكون الأرض فيها رخوة خطرة.»

فطمأنها بانه سيكون على حذر.

وإذ لم ينزل أبوها لتناول طعام الإفطار معهم، صعد ضيفهم إليه ليودعه، ثم حمل حقيبته وخرج إلى سيارته حيث وضعها في الصندوق من الخلف ثم عاد إلى حيث كانت أوجيني وأمها واقفتين عند عتبة الباب.

قال للسيدة سبنسر: «إنني مديون لك ولن أتمكن أبداً من ايفائك حقك من الشكر للطفك الجم.» وصافحها مودعاً، ثم اتجه إلى أوجيني.

«الوداع. لقد كنت المنقذ لي في الوقت المناسب. وأنا مديون لك إلى أقصى حد.»

مدت إليه يدها تصافحه وهي تقول: «إنني مسرورة لتمكني من مساعدتك. وانتبه إلى نفسك.» كانت متلهفة إلى أن تعلم إلى أين سيذهب بعد بابيني ولكنه لم يقدم أي معلومات عن ذلك، حتى ولا اشارة أو تلميح... وهكذا سارت معه إلى سيارته حيث لوحت له مودعة وهو يبتعد. وفكرت متأملة وهي تنظر إلى سيارته تختفي خلف المنعطف

المؤدي إلى الطريق العام، فكرت في مبلغ غرابة أن يقابل المرء شخصاً ما، ويقع في الحب بينما هو يدرك أنه لن يرى ذلك الشخص بعد ذلك أبداً في حياته. لم تكن تعلم أن الوقوع في الحب يكون بهذا الشكل.

عادت إلى أمها تمسك بذراعها قائلة: «كم أتمنى لو أتزوجه...» ثم أضافت: «لا تضحكي مني.»

استدارت أمها تنظر إليها ثم تجيبها: «كلا، يا عزيزتي. إنما تذكري ما سأقوله لك إذا كان مكتوباً لكما اللقاء مرة أخرى والوقوع في الحب ثم الزواج، فلا شيء يمكن أن يمنع هذا من الحصول.»

فقبلت أوجيني أمها على وجنتها: «إنني لا استغرب زواج أبي منك. إنني أعني هذا يا أمي.»

«أعلم انك تعنينه يا حبيبتي. والآن ادخلي لتبدأ أعمالنا المنزلية.»

وبينما كانتا تقومان بالغسيل معاً، قالت أوجيني فجأة: «إنني لا أعرف شيئاً ينكر عنه، ومع ذلك أشعر وكأنني كنت أعرفه طوال حياتي.»

وفي عصر ذلك النهار خرجت في نزهة طويلة سيراً على الاقدام مانحة بذلك الفرصة للتعقل بأن يحل مكان أحلام اليقظة التي ليس فيها أثر من الواقع. كان الشيء الوحيد الحقيقي هو أنها وقعت في غرام رجل من غير المحتمل أن تراه مرة أخرى. وقالت تحدث نفسها وهي تتجه عائدة إلى البيت، آه لا بأس من الأفضل أن أحب وافقد حبي من ألاّ أحب مطلقاً.»

وشعرت باغراء بالغ في أن تستفسر عنه من توم رايلي،

ولكن لم يكن لديها سبب للاتصال بذلك السيد إذ أن ما بينه وبين أبيها لا يعدو معرفة سطحية، هذا إلى ان السؤال عن الدكتور ريجناتير ساليس من وراء ظهره بدا لها نوعاً من التجسس...

عندما وصلت إلى البيت وجدت خبراً مفاده إن كان بإمكانها أن تذهب لرؤية الاستاذ واطس بالنسبة إلى اتحاد الأمهات، وعما إذا كان بامكانها أن تحضر له معها شيئاً من الأسبرين.

قالت أمها تعلق على ذلك: «يظهر أنه مريض، بامكانك أن تأخذي له معك شيئاً من الحساء الذي صنعته، فهو زائد عندنا.» ونظرت إلى الشرود في ملامح ابنتها، ثم أضافت: «تناولي الشاي أولاً، يا عزيزتي.»

فتح الاستاذ واطس الباب لها. كان يبدو تعساً وهو يقول متذمراً: «لم تأت السيدة بولارد إلي. لقد تركت لي الحليب والصحيفة فقط وهي تصيح من خلال فجوة صندوق البريد بانها لن تاتي إلي إلا بعد أن أشفى لأنها تخاف العدوى.»

فقالت أوجيني تخفف عنه: «لا يمكنك أن تلومها. إن لديها خمسة أطفال.» وتركته متجهة إلى المطبخ لتضع إناء الحساء وهي تتابع كلامها: «بامكانك أن تعتني بنفسك ليوم أو اثنين، أليس كذلك؟ أتريد استدعاء طبيب؟ ان الدكتور شاو في هولن هو كفء جدا. ربما أنت بحاجة إلى مضاد حيوي.»

فقال: «كلا، كلا، لا حاجة بي لذلك. إنما، بالطبع لو كان لي زوجة لتعتني بي...» وألقى عليها نظرة خاصة تجاهلتها وهي تقول: «لقد أرسلت إليك أمي شيئاً من

الحساء. والآن هل لك أن تخبرني بما تريدني أن أفعله بالنسبة إلى اجتماع اتحاد الأمهات وعن مجموعة الكشاف مساء الخميس. هل ستكون مستعداً صحياً لإقامة هذا العرض؟»

«سأحاول جهدي. كيف حال السيد سبنسر؟»

«إن الأطباء مسرورون من حالته. إن بامكانه بعد شهر أن يستلم بعض أعمال المدرسة على الأقل.»

قال: «هذا عظيم. إذن فلن تكون ثمة حاجة لخدماتي.» وسكت لحظة ثم عاد يقول: «إلا إذا سمحت طبعاً للأمل... هل تتزوجينني يا أوجيني؟ إن بامكاننا أن نبقى هنا، في منزل أفضل طبعاً وبامكاني استلام العمل من أبيك. لا بد لي من القول إنني كنت أفضل الإقامة في إحدى المدن ولكن بامكاني أن أرى تحسينات عديدة يمكن أن تقام. أظن الحياة هنا لا تتمشى وروح العصر كما هو الحال في بيئة عصرية.

كانت فتاة رقيقة الاحساس كما أنها ذات طبع عنيف إذا هي أثيرت. ولكنها الآن سمحت لرقة احساسها بأن يخمد طبعها ذاك، فقالت بلطف: «أشكرك لعرضك الزواج علي، ولكنني واثقة من أن ليس بإمكاني اسعادك، وأظن أنك ستكون أكثر سعادة عندما تعود إلى مدرسة في مدينة ما حيث يقدرونك حق قدرك. فكما ترى، الحياة هنا مختلفة قليلاً... وأكثر بدائية... إننا نعيش قريبين من الطبيعة، والطبيعة لا تتغير... أليس كذلك؟»

ومدت له يدها تصافحه مودعة: «لقد كنت عوناً كبيراً أثناء الأسابيع الماضية. ونحن شاكرون لك ذلك جداً.

حسناً، عليّ أن أذهب، فهناك إعداد العشاء إلى غير ذلك من الأعمال حول المنزل.»

فرافقها إلى الباب وهو يسألها: «هل أنت سعيدة هنا؟»

«نعم، فهذا موطني...»

«ألم تصادفك صعوبة أثناء عودتك أمس؟ لقد كان الضباب فظيعاً. ظننت أنني سمعت صوت سيارة بعد خروجك مباشرة.»

فقالت: «إن الصوت ينتقل في الضباب. أخبرنا فيما لو احتجت شيئاً.»

وعندما وصلت إلى البيت، سألتها أمها:

«لقد تأخرت كثيراً يا عزيزتي، ما الذي أعاقك؟»

فأجابت: «لقد عرض الاستاذ واطس الزواج عليّ فرفضت. وقد أخبرني بوجهة نظره عن وجوب مسايرتنا لروح العصر.»

«أرجو أنك تصرفت إزاء ذلك بشكل مهذب، يا عزيزتي، آه، أنا واثقة من ذلك. ولكنك حادة الطبع عندما تؤخذين بغتة. يا للرجل المسكين.»

«إنه سيعود إلى مدينته الكبيرة ويتزوج من امرأة تضع له قدميه في مغطس ماء حار، وتوافق على كل ما يقوله.»

ورأت نظرة أمها إليها، فقالت: «إنني لا أريد أن أكون فظة، يا أماه، فأنا واثقة من أنه رجل طيب جداً. ولكنني، بشكل ما، لا أستطيع التفكير فيه جدياً. كما أنني لا أظنه اهتم برفضي له كثيراً، وأظنه فكر في أن هذا الزواج سيمنحه فرصة للإستلام من أبي فيما بعد. هذا رغم أنه لا يميل إلى الحياة القروية.»

«حسناً، إن صحة أبيك في تقدم مستمرّ بحيث أن بإمكانه العودة إلى تنقلاته المعتادة بعد وقت قصير. ولا أدري إذا كان ذلك الرجل قد وصل سالماً إلى مكان توم رايلي.»

ويبدو أن هذا حصل فعلاً، إذ أن ساعي البريد حمل إليهم، في الصباح التالي، صندوقاً معنوناً بإسم السيدة سبنسر. وكان يحتوي على ورود. ليس عدة وردات فقط، وإنما على دزينتين منها وبصحبتها بطاقة موقعة بالأحرف (إ. ر. تير. س) وكانت الكتابة على البطاقة بخط مستعجل بحيث تساءلت السيدة سبنسر عما إذا كان كتبها خطأ باللغة الهولندية. ثم عرضتها على أوجيني حيث أنها معتادة على قراءة خطوط الأطباء، ولكن هذه قالت: «كلا، إنها باللغة الإنكليزية يا أمي، وهي تقول: مع شكري الجم لضيافتك الحسنة.»

«لشد ما أنت ماهرة، يا عزيزتي، ولشدّ ما هي جميلة هذه الورود، كما أنها بهذه الكثرة...»

كتبت أوجيني إلى المستشفى بشأن عودتها المؤقتة إلى العمل، فكان الردّ أنهم يأسفون لكون مكانها قد شغل وأن عليها أن تمضي شهرها ذاك في غرفة العمليات حيث أن الممرضة الثانية ستقوم بإجازة. وسيعطونها شهادة ممتازة عند انتهاء العمل، ولا شك أنها ستجد عملاً بنفس المركز في أي مكان تشاء.

وضعت الرسالة في جيبها دون أن تخبر والديها بمحتوياتها ما عدا أنها ستعود إلى المستشفى لتعمل في غرفة العمليات بدلاً من مكانها الأول.

قالت أمها: «هذا سيكون تغييراً حلواً، يا عزيزتي ما دام

لا يشبه بحال قسم الطوارىء الذي نراه على شاشة التلفزيون.»

تركت أوجيني منزلها أثناء الأسبوع الأول من شهر أيار (مايو)، وذلك ذات صباح خلت فيه السماء من الغيوم، كما بدت الأراضي السبخة في أوج جمالها وهي تستقل سيارتها كارهة. اتخذت الطريق الذي يمرّ من هولن حيث كانت تريد أن تتوقف هناك لتودع صديقة لها تعمل في مقهى صغير أثناء شهور الصيف.

وهكذا أمضتا معاً نصف ساعة ممتعة تناولتا أثناءها القهوة، لتقف بعدها أوجيني متلكئة وهي تقول: «الأفضل أن أذهب، فأنا لا أريد أن يباغتني زحام السير في شوارع لندن عند المساء.»

وبعد أن وعدت صديقتها بأن تخبرها إذا هي التحقت بوظيفة أخرى، توجهت عائدة إلى سيارتها. كان الطريق شبه خالٍ، ولم يبد على المكان العام في الزاوية أيّ أثر لحياة، ولكنها كانت تدرك أن المكان سيعج بالسائحين بعد شهر واحر فقط.

سارت ببطء متفادية قطعان الغنم، بينما تقاوم الرغبة في الخروج من سيارتها لإلقاء نظرة على جانبي الطريق. ولكنها، بدلاً من ذلك، تابعت طريقها خلال بلدة باكفاتيلي بشوارعها الضيقة متجهة إلى إكزيتر ومن ثم إلى طريق لندن.

بدت لندن، تحت أشعة شمس العصر، في أحسن حالاتها. ولكن لم يكن هناك شيء يمكن أن يغيّر من جوّ المستشفى الكئيب. أوقفت سيارتها خلف المبنى، ثم تقدمت نحو مكان

رئيس الحمالين مولينز الذي أشرق وجهه سروراً لرؤيتها مرة أخرى، وقال: «إنني مسرور لعودتك يا آنسة. إن عليك أن تذهبي إلى المكتب الساعة الخامسة.» ونظر إلى الساعة خلفه، ثم أضاف: «ما زال لديك وقت كافٍ للذهاب إلى مسكن الممرضات وتحضري مفتاح غرفتك.»

كانت المسؤولة عن المسكن، جديدة، قد بان في وجهها التذمر وهي تقود أوجيني إلى غرفة تقوم في الناحية الخلفية من المبنى، وتشرف على المداخن والجدران القرميدية، وهي تخاطبها قائلة: «حيث أنك ستتركين المستشفى آخر هذا الشهر، فقد شغلت غرفتك الأولى.»

ثم تركتها مبتعدة، بينما أخذت أوجيني تفكر في أن المسؤولة القديمة كانت، في مثل هذه الحالة، ستدعوها إلى تناول فنجان من الشاي حيث تتداولان آخر الأخبار. ولكن ما زال ثمة وقت تصنع فيه لنفسها فنجان شاي.

وهكذا ذهبت إلى غرفة المائدة حيث وجدت اثنتين من صديقاتها كانتا مسرورتين لرؤيتها، وبعد أن جلست معهما فترة تناولت فيها فنجان الشاي، تركتهما متوجهة إلى المكتب.

تلقت من رئيسة هيئة الممرضات ترحيباً أظهرت فيه قدر ما يسمح به طبعها المتزمّت من حرارة. وكانت هذه إمرأة باردة الطباع، حسنة الشكل، بالغة التزمت.

كان على أوجيني أن تبدأ العمل في غرفة العمليات في الصباح التالي. وستمكث معها الممرضة التي من المفترض أن تأخذ هي مكانها لهذا الشهر، ستمكث يومين تريها، أثناءهما، سير العمل ما يجعلها تشعر بالثقة، وهي تقول لها:

«لن يشكل العمل هنا أية صعوبة لك، يا آنسة سبنسر. فقد سبق وعملت في غرفة العمليات من قبل أن ترتقي إلى وضعك الحالي، أليس كذلك؟»

فأومأت أوجيني برأسها بأدب. كانت آسفة لتركها القسم الذي كانت تعمل فيه، ولكنها كانت تحب قسم العمليات كذلك.

أمضت المساء في تنظيم أمتعتها وتلقت أخبار المستشفى، ثم الإتصال هاتفياً بأمها تطمئنها إلى وصولها سالمة، ثم في تناول الشاي مع صديقاتها، لتأوي أخيراً إلى فراشها لتفكر، قبل أن تستسلم للنوم، في «إيديرك ريجنما تير ساليس»، كما كان هذا أول ما فكرت فيه بعد أن استيقظت.

والذي كان أيضاً أول من شاهدت في الصباح وهي تدخل غرفة العمليات.

الفصل الثاني

أشرق وجه أوجيني، سروراً ورفعت بصرها إلى وجهه الهادىء وهي تقول: «كنت اعلم اننا لا بد أن نتقابل مرة أخرى. ألم تكن انت أيضاً تعلم ذلك؟»

لم يبد هو أية دهشة لمرآها، ولكنه أجابها بقوله: «نعم، كنت أعلم.» وحدّق إليها من طوله البالغ، متابعاً: «هل ستعملين هنا مع الممرضات الأخريات؟»

فأومأت قائلة: «نعم، إنما لشهر واحد. كنت اظنك طبيب أمراض داخلية...»

«بل انا جرّاح.»

فابتسمت له: «اظن انني سأراك مرة أخرى.»

فوقف جانباً لكي تمر وهو يقول: «آه، دون شك.»

كانت عندما تلاقت أعينهما، ظنت أنها رأت سروراً يكسو ملامحه، ولكنه الآن بدا لها بارداً متحفظاً، فاتجهت نحو مكتب رئيسة القسم، شاعرة بالخذلان، ثم قدمت نفسها للعمل.

رحبت بها الممرضة المسؤولة وقد بدا عليها الارتياح: «حسناً، ها قد تلقيت بعض العون، على الأقل، ثم انك تعرفين طريقك بين الغرف، أليس كذلك؟ لقد حدثت تغييرات عديدة أثناء غيابك... منذ السنة الماضية، أليس كذلك؟ وأنا لم اتغير بالطبع، حيث ان الممرضة ثورب في إجازة مرضية.»

ولم يكن هناك شيء من الممكن أن يغير الممرضة كروس، تلك المرأة المسنة العجفاء المعقوفة الأنف، ذات

العينين السوداوين الصغيرتين اللتين لا يفوتهما شيء، وكانت الممرضات التلميذات يسخرن منها وراء ظهرها، بينما تتملكهن الرهبة عندما يرسلن للعمل عندها في قسم العمليات. كانت في منتهى القسوة في اصرارها على أن يكون العمل في أعلى مستوى، كما كانت تحكم سيطرتها على غرف العمليات الثلاث بقبضتها القوية. حتى ان بعض الأطباء المقيمين يحسبون لها ألف حساب، انما الجراحون كانوا يحبونها جداً حيث انها كانت موضع اعتمادهم تماماً.

كانت أوجيني تحبها، هي أيضاً. فكانتا تنسجمان معاً في العمل حيث انهما كانتا تقدر احداهما الأخرى حق قدرها، كما انها وجدت ان أوجيني لم تكن تخاف منها وخاصة من لسانها الحاد، بينما تقوم بأي عمل يطلب منها.

دعيت إلى الجلوس بينما أخذت الممرضة كروس تحدثها باختصار عن برنامج عمل الأسبوع القادم.

«ان لدينا استشارياً زائراً هو الدكتور ريجنما تير ساليس وهو هولندي وجراح ممتاز، مختص بجراحة القلب. وهو هنا بدعوة من الدكتور بيير ليعرض طريقة جديدة في استبدال صمامات القلب. وهو سيبقى هنا مدة اسبوعين او نحو ذلك، ثم يذهب إلى أدنبره وبيرمنغهام. انه مهذب جداً والتعامل معه سهل.»

اخذت أوجيني تتساءل عما إذا كان عليها ان تخبر الممرضة كروس بأنها سبق وتعرفت عليه، وأخيراً قررت ان من الأفضل ان تفعل هذا، وعندما سمعت الممرضة كروس قولها بهذا الشأن، قالت لها: «هممم...» ثم طلبت منها ان تذهب إلى غرفة العمليات الثانية لتتاكد مما إذا

كانت الممرضة هناك جاهزة للمساعدة في إجراء سلسلة من العمليات الصغيرة.

كانت هناك قائمة طويلة تبتدىء باحداث ممر في صمام قلب. قالت الممرضة كروس: «يمكنك ان تجهزي نفسك انت أيضاً، للوقوف مع الدكتور. وكلما أسرعت في العودة إلى نظام العمل، كان ذلك افضل.»

وهكذا جهزت أوجيني نفسها، ثم استلمت مريض الدكتور ريجنما تير ساليس الذي عاملها بشكل مؤدب وجاف جعلها تشعر بالانكماش بالنسبة لمشاعرها نحوه. لم تكن تتوقع منه ان ان يغمرها بمودة ساحقة، ولكن لم يكن ثمة حاجة إلى ان يبدي لها كل هذا الجفاء...

لم يكن بها حاجة إلى إظهار نشاط زائد. فقد كان غير مسرع ولا قلق وهو يعمل منحنياً بجسمه الكبير على مريضه الصبي الصغير الممدّد على منضدة العمليات، حيث كان يخيط ويقطع بصبر وهدوء جعلاها، وهي غير الواثقة من قدراتها، جعلاها تستقر وتهدأ دون ان تساورها أية شكوك من ناحيتهما. كانت، في الواقع، قد ابتدأت تشعر بالاستمتاع بعد الدقائق القليلة الأولى... كانت دوماً تحب العمل في قسم العمليات، وقد اطمأنت الآن إلى انها لم تنس أياً من مهارتها القديمة.

لم تكن العملية سهلة، وقد استغرقت وقتاً اكثر مما كان متوقعاً لها، وهكذا تأخرت بعدها العمليات التالية، ولكن الدكتور ريجنما تير ساليس انتهى اخيراً، فشكر أوجيني بأدب، ونزع قفازيه ووقف ريثما فكت ممرضة أربطة ثوبه من الخلف، ثم خرج ليستلم بعده الدكتور بيير ليقوم بتمييل

القلب. وخرجت هي لتتناول غداء متأخراً، وعند العصر كان لديها عملية التهاب الزائدة الدودية وفتق مختنق. وعند الساعة السادسة كانت متلهفة للذهاب بعد إذ انتهى عمل اليوم، بينما كانت الممرضة كروس تنبهها إلى انها ستكون تحت الطلب هذه الليلة، وهي تقول: «انني اعاني نقصاً في الممرضات والإجازات أيضاً. ان ممرضة قسم العمليات الليلية لديها المقدرة على استلام الحالات العادية، أما انت فسيكون استدعاؤك فقط للحالات التي لا تستطيع هي تدبير أمرها.»

أمضت أوجيني المساء تكتب إلى موطنها، متحدثة إلى صديقاتها، بينما تتساءل أين عسى دكتور ريجنما تير ساليس ان يكون ذهب. ثم ذهبت إلى فراشها مبكرة شاعرة بانقباض غامض لم تفهم له سبباً.

استيقظت عند الساعة الثانية صباحاً على يد تهزها بسرعة. «هنالك شاب مصاب بطلق ناري، يا اوجيني، رصاصة في القلب. ايمكنك ان تكوني في غرفة العمليات خلال عشر دقائق؟ ان الممرضات هناك قد جهزن كل شيء.»

كانت التلميذة الممرضة قد أضاءت النور ووضعت بجانبها فنجان شاي وهي تسالها: «هل استيقظت تماماً؟»

تركت أوجيني فراشها قائلة: «شكراً. عند وصولي إلى قسم العمليات سأكون قد استيقظت تماماً.»

إرتدت ثيابها بسرعة، وجمعت شعرها إلى الخلف مشبكة إياه بالمشابك بشكل غير منظم لتضع فوقه القبعة البيضاء، بعد ذلك ازدردت الشاي وأطفأت النور ثم سارت بهدوء خلال مسكن الممرضات لتدخل بعد ذلك المستشفى

والذي كان بالغ السكون حيث ان الوقت ليل والمرضى راقدون، إلا من اصوات معدنية ناتجة عن نقل معدات المرضى، وتنظيم فناجين الشاي وصحونها في المطبخ كما ان الخطوات الهادئة كان صداها يتجاوب في المكان. دخلت إلى قسم العمليات حيث قابلت الممرضة الليلية التي بدا عليها الارتياح لرؤيتها، وقالت: «انه هنا. لقد جهزت كل شيء امكنني التفكير فيه.»

«حسناً، ألم يحضروا المريض بعد؟»

«كلا. هل لك ان تجهزي نفسك الآن؟ اننا وحدنا نحن الاثنتين هنا، فهل هذا يكفي؟ المسؤولة الليلية تقول ان لديها نقصاً في الممرضات.»

فابتسمت أوجيني تطمئنها قائلة: «إذن، فسنتدبر الأمر.» ثم خرجت إلى حيث تغسل يديها وترتدي الثياب المعقمة، وما ان اجتازت مكتب الممرضة المسؤولة حتى توقفت: «آنسة سبنسر، لحظة واحدة من فضلك.»

كان الدكتور ريجنما تير ساليس جالساً عند المكتب مرتدياً ملابس غرفة العمليات الفضفاضة. رفع عينيه عند دخولها، قائلاً: «انني آسف لجعلك تتركين فراشك، انه فتى اصيب في مشاجرة ليلية في الشارع بطلقات رصاص في صدره. لقد دخلت قلبه رصاصات، ما يجعل بقاءه حياً، شيئاً غريباً، كما استقرت عدة رصاصات في شغاف القلب ورصاصة واحدة على الأقل في البطين الأيمن، سيكون هنا السيد سايمز المسجل المسؤول، وكذلك اثنان من الأطباء المقيمين. هل تحتاجين إلى مزيد من الممرضات؟»

فأجابت: «لقد تركت لي المسؤولة الليلية خبراً بأن لديها

نقصاً في الممرضات. ان ممرضة القسم غاية في الكفاءة، فإذا احتاج طبيب البنج ممرضة فسأطلب واحدة.»

فكان جوابه ان جذب الهاتف نحوه وهو يقول لها: «انصرفي الآن وجهزي نفسك.»

لم يظهر عليه انه لاحظ نظرة السخط التي رمقته بها. ولكنها انصرفت على كل حال، فلم يكن الوقت يسمح بمكاشفته برأيها في طريقة كلامه، انما فيما بعد... انصرفي... ولكنها مالبثت ان نفت كل هذا من ذهنها، ومضت لتعد نفسها للعمل معه.

وفي غرفة العمليات، أخذت تفرز الأدوات، وتتأكد من أن كل المعدات جاهزة مع كيث التقني، واكتشفت ان هناك ممرضة للبنج وتلميذة تمريض أعلى مركزاً لمساعدة الممرضة المسؤولة.

ولا بد ان الدكتور ريجنما تير ساليس قد استعاد جانبيته. حتى في الساعة الثانية صباحاً كان عليها ان تعترف بذلك، وبجانب ذلك، فقد كانت تحبه. عند ذلك توقفت عن التفكير به وانصرفت إلى عملها الذي بين يديها.

لم يعد الوقت مهماً، فقد كانت مركزة كل احاسيسها على عملها، وقد انتبهت إلى ان الدكتور ريجنما كان يعمل بثقة تامة، فيخرج الرصاصة من قلب الرجل وجدار الصدر بحذق ومهارة كاملين دون أي تسرع، وعندما اصبح راضياً تماماً ومقتنعاً بأن آخر جسم غريب قد أخرج من الجسم، كانت الساعة السادسة، فانصرف إلى الخياطة والاهتمام الدقيق بالتفاصيل.

اما ان الرجل كان مايزال حياً، فتلك هي الاعجوبة، ولكنه كان شاباً قوي الجسم، وكان حظه في الشفاء كبيراً، وهكذا

حمل بعيداً إلى غرفة العناية الفائقة، يتبعه الجراحان وطبيب البنج. بينما اخذت اوجيني ومجموعتها في تنظيم وتنظيف المكان، ذلك ان ممرضات النهار سيصلن للعمل في الوقت الذي يفرغن فيه من كل ذلك.

قالت لها الممرضة كروس: «الأفضل ان تذهبي إلى فراشك مباشرة بعد انتهاءك من تناول افطارك، وعودي للعمل الساعة الخامسة حيث تمكثين إلى حين وصول ممرضات الليل.»

خرجت أوجيني إلى غرفة الطعام حيث تناولت الإفطار، رغم انها لم تكن، لغلبة النعاس عليها، لتنتبه إلى نوع ما كانت تأكل، ثم دخلت غرفتها حيث اغتسلت واوت إلى فراشها. ورغم تعبها ذاك، فقد وجدت وقتاً تفكر فيه في الدكتور ريجنما، فهي لم تره منذ ان ترك غرفة العمليات، وهو يشكرها بادب، وكان من غير المحتمل ان تراه عندما تعود إلى العمل فيما بعد، راجية ألاّ يكون متعباً للغاية.

بعد الساعة الرابعة، دعتها إحدى صديقاتها إلى فنجان شاي، فانقلبت في فراشها وعادت تغمض عينيها وهي تتمتم: «انني متعبة جداً.» ثم دفنت وجهها في الوسادة.

ولكن صديقتها ردت عليها قائلة: «كلا، انك غير متعبة، فليس لديك ما تعملينه في قسم العمليات سوى الجلوس في المكتب وتناول القهوة والخوض في أخبار المستشفى.»

عند الساعة الخامسة، كان الإرهاق مايزال واضحاً على وجهها الذي بقي، مع هذا، على جماله الرائع، ثم دخلت تقدم نفسها في مكتب رئيسة القسم.

سألتها الممرضة كروس: «هل نمت جيداً؟ لا شيء هناك

في الوقت الحاضر ستعود الممرضة تيمز من تناول الشاي بعد خمس دقائق. ان بإمكانها ان تقفل غرفة طبيب الأسنان، وقد تركت لك برنامج العطل لكي تريه، ويمكنك ان تكتبي التقرير النهاري، وترسلي الغسيل.» وناولتها الممرضة كروس المفاتيح: «من الأفضل ان تذهبي إلى فراشك مبكراً.»

فأجابتها أوجيني بفتور: «نعم.» كانت تتمنى، لو أتيحت لها الفرصة، لو تذهب إلى فراشها في هذه اللحظة.

كانت الممرضة تيمز فتاة هادئة صغيرة الحجم ذات ملامح متزمتة، وكانت قديرة في عملها إنما ليست محبوبة تماماً من زملائها، وعندما عادت، صنعت الشاي لأوجيني ثم خرجت لتؤدي عملها في غرفة طبيب الأسنان والذي كانت اوجيني متأكدة من انها ستؤديه على افضل وجه.

شربت أوجيني الشاي، ثم استدارت إلى برنامج عطلات الممرضات. كان هناك عدة التماسات لبعض ممرضات قسم العمليات يطلبن عطلاتهن في ايام معينة. ولا عجب ان تركت الممرضة كروس الأمر اليها، كما اخذت أوجيني تفكر باستياء. فلو ان كل الالتماسات ستقبل، ستعم عند ذلك الفوضى. وكانت الممرضة كروس قد وضعت عدة ملاحظات بقلم الرصاص مسجلة لنفسها عطلة في نهاية الأسبوع، ولأوجيني يومين في وسط الأسبوع. وقالت أوجيني بسرور: «سأذهب إلى بيتنا.»

«فكرة رائعة.» كان هذا صوت الدكتور ريجنما تير ساليس وهو يدخل المكتب. اتكأ فوق المكتب يقرأ برنامج العطلات بشكل معكوس، ثم يقول: «ان عطلتك هي الأربعاء والخميس... هل ثمة أحسن من ذلك؟ فأنا ذاهب إلى لكزيتر وساوصلك معي.»

فاحمر وجه اوجيني، وبقيت لحظة لا تستطيع الكلام

وكأنها فقدت صوتها، ولكن، حيث انه كان ينتظر جوابها، فقد تنفست بعمق، قائلة: «ان عرضك هذا عليّ هو لطف بالغ منك يا سيدي. ولكنني ساسافر بسيارتي لكي أعود فيها.»

«وهكذا أنا، هل يناسبك ان نعود ليلة الخميس؟ لا اظنه يتوجب عليك ان تكوني في بيت الممرضات قبل العاشرة مساء، أليس كذلك؟ فالمفروض ان الممرضات الصغيرات السن هن اللواتي بحاجة إلى الحراسة.»

فذهلت أوجيني وقالت بشراسة قائلة: «بينما، نحن النساء الأكبر سناً، بإمكاننا ان نحافظ على انفسنا.» وحملقت فيه وقد زادها الضغب تألقاً وجمالاً.

فقال: «لا داعي لغضبك هذا. انك متعبة طبعاً، ولكن ذلك العمل كان يستحق كل هذا التعب، فالمريض يتماثل للشفاء، ولقد مررت به لتوي لألقي نظرة عليه.»

«لشد ما أنا مسرورة، أرجو الشفاء لهم جميعاً.»

فابتسم لها، وخفق قلبها لهذا.

فقال: «انك جيدة في عملك، كما ان مواهبك متعددة.. بإمكانك، مثلاً، ان تجدي طريقك في وسط الضباب الكثيف، العناية بالضعفاء المصابين بالزكام الثقيل، ثم مناولة أدوات العمليات في الوقت المناسب تماماً. ساكون في الخارج بانتظارك الساعة السابعة مساء الثلاثاء القادم... وليس بالإمكان التبكير عن ذلك، وإذا كنا محظوظين، فسنصل إلى بيتك حوالي منتصف الليل.»

فابتدأت تقول: «انني لم اقل...» ولكنها عادت فغيرت رأيها وهي ترى عينيه الزرقاوين المتألقتين متسمرتين على وجهها، فقالت: «هذا حسن جداً. اشكرك.»

عند ذلك أومأ برأسه، وتمنى لها ليلة سعيدة، ثم خرج بهدوء من الغرفة كما دخل.

لم يكن هناك ما يمنعها من التفكير به، فقد أنهت برنامج العطلات بسرعة وقد غمرتها احلام اليقظة. تساءلت عما إذا كان متزوجاً... أم لعله خاطب؟ هل هو على علاقة مع فتاة هناك... في هولندا؟ ان عليها، لإراحة ذهنها، ان تجد جواباً لكل هذه الأسئلة. وربما ستتمكن من ذلك أثناء رحلتهما إلى بيتها.

• • •

لشد ما تأخر قدوم مساء الثلاثاء ذاك. وحيث ان الممرضة كروس كانت في عطلة، فقد كان على أوجيني ان تكون هي المسؤولة مكانها في قسم العمليات، هذا إلى كونها كانت مشغولة على الدوام تقريباً. كانت ممرضة القسم الأخرى تعمل في غرفة العمليات الثانية مستلمة الحالات الصغرى، هذا إلى عدة تلميذات، كما كانت هناك قائمة عمليات نهار الاثنين اجراها الدكتور بيير. وعندما عادت الممرضة كروس في عصر ذلك النهار، وجدت ان الدكتور رينجما قد قام بإجراء عملية بعد الظهر.

ونهار الثلاثاء، لم يكن ثمة أثر له. فخرجت بعد انتهاء عملها اليومي، في الساعة الخامسة مساء وهي غير واثقة مما إذا كان مايزال يتذكر وعده لها بتوصيلها إلى بيتها... هل يمكن ان تشغله عن ذلك عملية خطيرة مستعجلة في القلب؟

غيرت ملابسها، واعدت حقيبة ثيابها الصغيرة وفي السابعة بالضبط كانت في فناء المبنى مقتنعة تماماً بأنه لن يحضر.

ولكنه كان متكئاً على جدار هناك، بالغ الأناقة، وغارقاً

في التفكير كما يبدو. وقبل ان تصل إليه، توجه نحوها قائلاً وهو يبتسم متودداً: «مرحبا... ما اجمل حرصك على الدقة في الموعد.»

اخذ من يدها الحقيبة، ثم خرجا من المبنى معاً. كانت أوجيني قد قررت ان تفكر في اشياء مرحة فكهة تقولها، ولكنها، بدلاً من ذلك بادرته بإبداء ملاحظة عن الجو: «يبدو وكأن المطر سيهطل.»

فلوى شفتيه: «اظن هذا محتملاً جداً.» وكان اثناء ذلك يضع حقيبتها في المقعد الخلفي، ويساعدها على الصعود إلى المقعد بجانبه، ثم يتحرك بالسيارة. وفكرت في ان ليس لديها وقت للخوض في أمور تافهة. وجلست هادئة وقد تغلبت على خجلها، وهو يجتاز المدينة وضواحيها، ولكنهما عندما تخلصا من حركة السير المزدحمة، سألته فجأة: «هل انت متزوج؟»

ولا بد أنه اخفى دهشته تماماً لسؤالها هذا، لأنه أجاب بهدوء: «كلا.»

فقالت تلح عليه: «لكنني أتوقع ان تكون خاطباً.» ولكنها لم تكن تتوقع، في الحقيقة، ان يقول: «نعم، انني خاطب.» وذلك بلهجة تحداها فيها أن توجه إليه اي سؤال آخر.

شعرت بالمفاجأة، ولم تعرف لماذا كانت تفترض أنه خالي القلب. فهو وسيم، بارز في مهنته، ويملك، كما يبدو، مالاً كافياً لحياة مريحة تماماً. وتساءلت عمن يمكن ان تكون فتاته. ولما كانت أوجيني، هي أوجيني، فقد تابعت استعلاماتها رغم البرود الواضح على ملامحه، فعادت تسأله: «اظنها هولندية؟»

«نعم.»

«هل هي جميلة؟ ماذا تشتغل؟»

فأجاب بعد فترة صمت: «ان لديها أصدقاء كثيرين جداً، وهي تسافر كثيراً وتقوم ببعض الأعمال الاجتماعية...»

«ولكن أليس لديها وظيفة؟»

«كلا، انها ليست بحاجة للعمل.»

فقالت: «حسناً، سيكون هذا أمراً جيداً عندما تتزوجان، اعني انه سيكون بإمكانها البقاء في المنزل للعناية بالأطفال.» وجعلتها هذه الفكرة تشعر بالكآبة.

فقال بلهجة جامدة: «آه، نعم، أظن ذلك. هل اتصلت بأمك هاتفياً لتخبريها بانك ستصلين متأخرة هذا المساء؟»

فأدركت أوجيني انه بتحويله الموضوع، انما يريد تقريعها... حسناً، لا بأس. واجابت وهي تشعر بنوع من التعاسة لا تدري مصدرها: «نعم، لقد اتصلت بها. وإذا كنت لا تريد ان تتكلم عن خطيبتك، فهذا لا يهمني.»

فقال بلهجة تهكم: «وهل قلت انا انني أحب الحديث عنها؟ انه انت التي...»

فقالت بحدة: «لا بأس. لقد كنت فقط اقطع الوقت بالحديث.»

فضحك عندذاك، ولكنه لم يجبها بشيء، واستمرا في طريقهما بصمت مايدا معه الوقت طويلاً، إلى أن توقف امام مطعم، قائلاً: «اظن لدينا وقتاً كافياً لفنجان قهوة وبعض الشطائر.»

فقالت بكبرياء: «انني افضل الشاي.» ثم اتجهت إلى استراحة السيدات حيث سرحت شعرها واصلحت زينتها، ثم

عادت تبحث عنه في ذلك المطعم المزدحم. نهض لمرآها، فتوجهت نحوه. كان يتصرف بتهذيب طبيعي كمن نشأ في احضان مربية جيدة.

«انا واثق من انك ترغبين في قطعة خبز محمص بالزبدة، لقد قطعنا، حتى الآن، مسافة لا بأس بها، ولكن مازال أمامنا وقت طويل لنصل.»

جلست تسكب الشاي وتشربه أثناء فيض من احاديث رقيقة أخذ يغرقها بها لم تكن تستدعي منها انتباهاً خاصاً، بل جواباً مختصراً من وقت لآخر. وخفف عنها هذا وبدد ما تشعر به من سوء في المزاج، فوجدت نفسها تخبره عن مرض أبيها وعن الاستاذ واطس ومبلغ شوقها إلى البراري، ثم عادا إلى السيارة، ومع انه لم يكن لديهما الكثير ليتحدثا عنه، فقد أصبح الصمت الآن ودوداً.

تقدم المساء وسادت العتمة الكون، وابتدأ المطر يهطل رذاذاً. وكان الطريق يمتد امامهما ولا شيء يبدو للعيان، كما كانت حركة السير تكاد تكون معدومة. كانت أوجيني تشعر بالاطمئنان رغم الشعور بعدم الاهتمام الذي يقرب من الملل. فقد كان اكتشافها انه سيتزوج وان وجوده بقربها الآن وما يبدو عليه من السرور بمرافقتها، ما هو إلا شيء مؤقت، كان كل هذا بمثابة صدمة لها، في الواقع، إذ حسب ما كانت تأمل، كان لرحلتهما هذه ان تمتد إلى الأبد.

ولاحت عن بعد أنوار مدينة اكزيتر وكانا الآن في الطريق المؤدي إلى بلايموث وكان هذا يحدث بسرعة بالنسبة إليها، ثم يتحولان ليصعدا ببطء التل ويهبطا منه إلى دارتميت وتباطأ سيرهما الآن بسبب الأغنام التي كانت

تجول في الأنحاء ببالغ الحرية، انما لم يمض وقت طويل حتى كانا يسلكان الطريق الضيق إلى القرية ليتوقفا، بعد ذلك، بهدوء، عند باب منزل والدها.

نظرت أوجيني إلى ساعتها. لم يستغرق الطريق اكثر من أربع ساعات فقد كان سيرهما سريعاً. خرج من السيارة وفتح لها الباب، فقالت له: «لابد ان تدخل وتشرب شيئاً، لا بد ان أمي...»

فقاطعها: «كان هذا اليسرني حقاً ولكن لا بد لي من العودة إلى إكزيتر. ساراك يوم الخميس حوالي الساعة السادسة.»

فقالت وهي ترى أمها واقفة عند الباب تنظر إليها: «شكراً لتوصيلك لي. ساكون بانتظارك. انما انتبه إلى الحذر في قيادة سيارتك.»

فابتسم لها، ولكنها لم تستطع رؤية وجهه بوضوح في الظلام، ثم صعد إلى سيارته وتحرك بها تاركاً اوجيني، تدخل المنزل وتوضح لأمها ان وقته لم يكن يسمح له بالدخول معها.

سارت أمها امامها إلى المطبخ وهي تقول: «لا بأس، مادام لديه سرير يمضي فيه الليل، وعشاء يأكله. هل سيعيدك معه إلى لندن؟»

«نعم. وعليّ ان اكون جاهزة الساعة السادسة من مساء الخميس. كيف حال أبي؟»

«جيد جداً بالنسبة إلى حالته. لقد شفي الاستاذ واطس من الزكام، وقد ساعدته انا في يوم اتحاد الأمهات وكشاف الأحد.» وابتسمت لابنتها. «لقد اشتقنا اليك، يا عزيزتي.»

وضعت امام ابنتها صحفة حساء واخذت تقطع بعض

www.liilas.com

الخبز وهي تقول: «انه سيجوع، رجلك الهولندي اللطيف ذاك.»

فقالت أوجيني مكتئبة: «انه ليس رجلي. انه خاطب لفتاة هولندية.»

فحدّقت الأم في ابنتها: «ولكنه غير متزوج. هل تحدثتما في هذا الأمر؟»

هزت أوجيني رأسها: «لم يعجبه ذلك. كما أظن فهو لم ينطق بغير لا ونعم. هذا إذا فهمت ما اعني.»

«هذا غريب. ان الرجل عادة، عندما يكون مغرماً بفتاة، لا يتوقف عن الحديث عنها.»

اخذت أوجيني في تناول الحساء وهي تقول: «ربما ظنني فضولية.»

«وهل كنت كذلك، يا عزيزتي؟»

«كنت أريد ان اعرف، ياأمي، وقد عرفت الآن، وهكذا بإمكاني ان انصرف. أليس كذلك؟ سانساه.»

كانت تتكلم ببشاشة، حيث انها لم تكن تصدق كلمة مما كانت تقوله.

حفلت إجازتها هذه بكل غريب طارىء. فقد كان عليها أن تأخذ الكلب تايغر إلى الطبيب البيطري لإعطائه إبر الوقاية، وأثناء انتظارها له، قامت بالتسوق الأسبوعي لأمها كما زارت السيدة آش العجوز التي تعيش مع ابنها في مزرعة بعيدة آخذة معها كعكاً وزهوراً حيث ان السيدة العجوز ستحتفل بذكرى مولدها التسعين في الأسبوع القادم. وعندما عادت إلى البيت كان الاستاذ واطس مع أبيها يحدثه عن عزمه على تغيير اوقات الخدمات المدرسية. فتدخلت

أوجيني في الحديث قائلة: «ان هذه الأوقات لم تتغير منذ عشرات السنين. وانت تريد أن تقوم بهذا فقط لأنه ملائم لأوقاتك.» ولم تهتم لقول أبيها لها، «هس يا أوجيني.»، بل تابعت ببعض الحدة: «وما الفائدة؟ انك سترحل بعد أسبوع أو اسبوعين فيعود كل شيء إلى ما كان عليه.»

فشعر الاستاذ واطس بنفسه موزعة بين غيظه لعدم حصوله على ما يريد، وبين شعور الإعزاز الذي يكنه لأوجيني، بينما قالت هي: «ها قد فهمت ما اعني. انني مسرورة لموافقتك.»

منحته ابتسامة مشرقة، وانهت الموضوع بقولها انها ستسير معه إلى منزله أثناء عودته.

وعندما عادت إلى بيتها، قال لها أبوها برقة: «المسكين يا عزيزتي.»

«آه، كلا، يا أبي. انت تعلم انك لا توافقه على ما يقول، وكل ما في الأمر انك رقيق الاحساس لا تحب ان تصارحه بذلك.» ثم دخلت المطبخ تساعد أمها في اعداد العشاء.

وفي اليوم التالي، كان المطر مايزال ينهمر، ولكن كان هنالك كثير من العمل في الحديقة وهكذا أمضت الصباح تعمل سعيدة، فتحفر الأرض تهيئها لزراعة انواع من الأزهار المفيدة. وعندما تحسن الجو أثناء الغداء، وذلك بشكل مفاجيء، بينما كانت الريح ما تزال تهب بقوة، غسلت هي ستائر المطبخ ونشرتها في الخارج ثم كوتها لتعلقها، بعد ذلك، مكانها، وذلك قبل ان تغير ملابسها فترتدي الطقم التويد الذي جاءت به من لندن، ثم تحزم حقيبتها وتنزل لكي تكون بانتظار الدكتور ريجنما تير ساليس.

كان المطر قد توقف منذ وقت طويل، وقد صحا الجو تماماً انما الريح مازالت قارسة، وقد جاء هو في الموعد بالضبط حيث حيا أوجيني بشكل عادي ما كدر مشاعرها، وتناول القهوة والبسكويت من يد السيدة سبنسر، وتحدث قليلاً مع والدها، ثم أشار إلى أنه من الأفضل ان يبدأ السير الآن عائدين إلى لندن.

صافحهما، كما وجهت إليه السيدة سبنسر دعوة حارة بأن يأتي لزيارتهم في أي وقت يزور فيه البلاد، قائلة: «اننا معزولون قليلاً، ولكن مادمت قد عرفت الآن بيتنا...»

فشكرها بابتسامة، ثم افسح الطريق لأوجيني لكي تودع والديها، وكانا على أهبة الخروج من الباب، عندما قالت الأم بأسف: «سيتملك جوشا الأسف لعدم رؤيتك، يا أوجيني. هل ابلغه تحياتك الحارة؟» وابتسمت للدكتور ريجنما تير ساليس وهي تشرح له الأمر. «ان الاستاذ واطس كان يساعد زوجي بعمله عندما كان مريضاً.»

فنظرت إليها ابنتها باستياء وقالت بلهجة حلوة: «لا تكلفي نفسك هذا العناء يا أمي العزيزة، فهو يعرف تماماً شعوري نحوه.»

وفي السيارة سألها الدكتور ريجنما تير ساليس على الفور: «هذا الاستاذ... جوشا؟ يبدو أنه متيم بك، ألا تبادلينه الاهتمام؟»

فقالت بحدة: «لا تكن سخيفاً. انك تعرف تماماً انني لا افعل ذلك. انه لا يستطيع حتى ان يسلق بيضة.»

«اتعتقدين ان سلق البيض هو شيء مرغوب في الزوج؟»

«انا اعلم انك تضحك مني. ولكن بما انك تسأل، فانا اعتقد

ان الرجل يجب ان يكون قادراً على القيام بشيء من مبادىء الطهو. هل تعرف انت الطهو؟»

كانا يقتربان من مدينة اكزيتر وقد لاحت أمامهما انوارها فقال: «يمكنني ان اسلق بيضة بكل تاكيد. كذلك احمص الخبز، وأيضاً اصنع الشاي.»

فقالت: «آه، ومن علمك ذلك؟» ولم تهتم إلى قلة الأدب في سؤالها هذا.

أجاب: «انها أمي. لقد كانت دوماً يتملكها هاجس مؤلم وهو انني ربما تزوجت من امرأة لا تحسن فن الطهو.»

فصممت على متابعة اسئلتها قليلة الأدب هذه، فعادت تسأله: «وخطيبتك؟ هل تحسن الطهو؟»

«اظن هذا غير محتمل، ولكن مادام عندي مدبرة منزل ممتازة، فهذا الأمر غير مهم.»

فعادت تقول وهي تعلم انه لن يصفح عنها بعد هذا السؤال ولن يوصلها ابداً إلى منزلها مرة أخرى، قالت: «انك ثري إذن.»

«آه، انك بالغة الصراحة، يا أوجيني، ولكنني سأريحك بقولي انني اشتغل لأعيش.»

«انك تتعب تماماً في سبيل ذلك. اعتقد انك تستحق كل قرش تكسبه...»

فقال بوداعة: «انني اهدف إلى ان اجعل للنقود قيمة.»

سكتت عند ذاك، فسألها: «وانت يا أوجيني مما رأيته من عملك، اعتقد انك انت أيضاً تجعلين للنقود قيمة. ما الذي تنوين عمله عندما تتركين المستشفى؟»

«انني غير متأكدة، فأنا لا اريد الارتباط وذلك لأجل حالة

أبي. واظن ان عليّ ان اذهب إلى مكتب تمريض، حتى إذا كان عليّ ان اذهب إلى البيت، استطيع ذلك بسهولة، لا اظن التمريض الخاص سيعجبني ولكن المستشفيات تطلب تعاقداً.»

فقال: «يمكنك ان تتزوجي الاستاذ واطس، وأنا متأكد من أنه سيكون راضياً تماماً كما انك ستكونين قريبة من أبيك فيما لو احتاجك.»

قالت بقوة: «هل لديك فكرة عن شخصية الاستاذ واطس هذا؟ ان أبي مدير المدرسة منذ سنين لا اذكرها، وسينكسر قلبه إذا حدث فيها أي تغيير. انني لا اريد ان اتزوج الاستاذ واطس هذا...»

«انه هو الذي سيخسر. فأنت مناسبة تماماً لتكوني زوجة استاذ، وذلك لأنك تحبين السلطة، صريحة، ومدبرة، وقادرة.»

فانتفخ صدرها غضباً وأسى لهذه الفكرة التي يكوّنها عنها. وقالت بهدوء: «ليس ثمة فائدة من هذا الحديث، أليس كذلك؟ دعنا نتحدث عن الجو.»

فضحك عند ذلك، ولكنه بقي صامتاً ماعدا إعطاء ملاحظات عابرة من وقت لآخر، ملاحظات من نوع تلك التي قد يدلي بها إلى أي راكب غريب صدف ان تفضل عليه بنقله معه في سيارته.

وفي المستشفى خرج من السيارة وساعدها على النزول، ثم حمل حقيبتها وسار معها إلى المدخل. وهنا توقفت لتقول له: «اشكرك لتوصيلك لي. كان هذا لطفاً جماً منك.»

ابتسم لها وقال: «سأراك مرة أخرى. تصبحين على خير.»

لم تنم جيداً تلك الليلة، فقد كان ذهنها مشغولاً بالتفكير

في السيد ريجنما تير ساليس، وهكذا شعرت بالسرور حين نهضت لتنزل بعد ذلك إلى حيث تتناول الإفطار، وبعد ذلك إلى قسم العمليات. حيّتها الممرضة كروس بطريقتها المتجهمة، ولكن أوجيني التي كانت سعيدة لكونها ستراه خلال الساعة القادمة، حيّتها ببشاشة تامة، ثم خرجت من المكتب لتتأكد من أن كل شيء جاهز لعمل الصباح.

وكانت على وشك ارتداء الملابس المعقمة عندما جاء المسجل يحذرها قائلاً: «انتبهي إلى الدكتور بيير، فهو حاد المزاج هذا الصباح...»

«الدكتور بيير؟ هل هو الذي سيجري العملية القادمة؟»

«نعم، فقد سافر الدكتور ريجنما إلى ادنبره لإجراء عملية زرع قلب... واظنه سيمكث هناك يومين أو ثلاثة.»

«ولكنه كان في المستشفى الليلة الماضية...» فألقى عليها نظرة سريعة. كان رجلاً متحفظاً، ومعجباً بها، وكان قد زارهما معاً عند عودتهما ولكنه لم يكن يريد ان يتحدث عن ذلك بل قال: «لقد سافر أثناء الليل، فلم يكن هناك وقت ليضيعه. وكان اقترح عليه ان يذهب بالطائرة، ولكنه فضل ان يذهب بسيارته. فالسفر بالطائرة، بما يتضمنه من ذهاب إلى المطار، واللقاء هناك وغير ذلك، لن يكون اسرع من السفر بمثل سيارته القوية السريعة تلك.»

«أرجو ان تنجح تلك العملية.»

«إذا لم تنجح فلن يكون الذنب ذنبه، فهو جراح ماهر تماماً.»

تركها وخرج بينما عادت هي تعد نفسها شاعرة بالضجر من الدكتور بيير وطباعه السيئة.

أبي. واظن ان عليّ ان اذهب إلى مكتب تمريض، حتى إذا كان عليّ ان اذهب إلى البيت، استطيع ذلك بسهولة، لا اظن التمريض الخاص سيعجبني ولكن المستشفيات تطلب تعاقداً.»

فقال: «يمكنك ان تتزوجي الاستاذ واطس، وأنا متأكد من أنه سيكون راضياً تماماً كما انك ستكونين قريبة من أبيك فيما لو احتاجك.»

قالت بقوة: «هل لديك فكرة عن شخصية الاستاذ واطس هذا؟ ان أبي مدير المدرسة منذ سنين لا اذكرها، وسينكسر قلبه إذا حدث فيها أي تغيير. انني لا اريد ان اتزوج الاستاذ واطس هذا...»

«انه هو الذي سيخسر. فأنت مناسبة تماماً لتكوني زوجة استاذ، وذلك لأنك تحبين السلطة، صريحة، ومدبرة، وقادرة.»

فانتفخ صدرها غضباً وأسى لهذه الفكرة التي يكوّنها عنها. وقالت بهدوء: «ليس ثمة فائدة من هذا الحديث، أليس كذلك؟ دعنا نتحدث عن الجو.»

فضحك عند ذلك، ولكنه بقي صامتاً ماعدا إعطاء ملاحظات عابرة من وقت لآخر، ملاحظات من نوع تلك التي قد يدلي بها إلى أي راكب غريب صدف ان تفضل عليه بنقله معه في سيارته.

وفي المستشفى خرج من السيارة وساعدها على النزول، ثم حمل حقيبتها وسار معها إلى المدخل. وهنا توقفت لتقول له: «اشكرك لتوصيلك لي. كان هذا لطفاً جماً منك.»

ابتسم لها وقال: «سأراك مرة أخرى. تصبحين على خير.»

لم تنم جيداً تلك الليلة، فقد كان ذهنها مشغولاً بالتفكير

في السيد ريجنما تير ساليس، وهكذا شعرت بالسرور حين نهضت لتنزل بعد ذلك إلى حيث تتناول الإفطار، وبعد ذلك إلى قسم العمليات. حيّتها الممرضة كروس بطريقتها المتجهمة، ولكن أوجيني التي كانت سعيدة لكونها ستراه خلال الساعة القادمة، حيّتها ببشاشة تامة، ثم خرجت من المكتب لتتأكد من أن كل شيء جاهز لعمل الصباح.

وكانت على وشك ارتداء الملابس المعقمة عندما جاء المسجل يحذرها قائلاً: «انتبهي إلى الدكتور بيير، فهو حاد المزاج هذا الصباح...»

«الدكتور بيير؟ هل هو الذي سيجري العملية القادمة؟»

«نعم، فقد سافر الدكتور ريجنما إلى ادنبره لإجراء عملية زرع قلب... واظنه سيمكث هناك يومين أو ثلاثة.»

«ولكنه كان في المستشفى الليلة الماضية...» فألقى عليها نظرة سريعة. كان رجلاً متحفظاً، ومعجباً بها، وكان قد رآهما معاً عند عودتهما ولكنه لم يكن يريد ان يتحدث عن ذلك بل قال: «لقد سافر أثناء الليل، فلم يكن هناك وقت ليضيعه. وكان اقترح عليه ان يذهب بالطائرة، ولكنه فضل ان يذهب بسيارته. فالسفر بالطائرة، بما يتضمنه من ذهاب إلى المطار، واللقاء هناك وغير ذلك، لن يكون اسرع من السفر بمثل سيارته القوية السريعة تلك.»

«أرجو ان تنجح تلك العملية.»

«إذا لم تنجح فلن يكون الذنب ذنبه، فهو جراح ماهر تماماً.»

تركها وخرج بينما عادت هي تعد نفسها شاعرة بالضجر من الدكتور بيير وطباعه السيئة.

حيث ان الدكتور ريجنما تير ساليس لم يكن موجوداً ليشغل ذهنها، فقد ركزت افكارها على مستقبلها. فخرجت إلى مكاتب التمريض تضع اسمها عندهم كممرضة خاصة. وكان الطلب على الممرضات الخاصات كثيراً، ولكن اكثر تلك المكاتب كان في لندن بينما هي تريد واحداً قريباً من بلدتها، في اكزيتر أو بريستول أو بلايموث. اقترح عليها السيد سايمز رغبة منه في تقديم يد العون لها، ان تجرب المستشفيات الخاصة، ولكن هذه أيضاً طلبت تعاقداً قانونياً، وظهر ان الطلب على ممرضات جراحة وغرف عمليات، هو قليل ذلك ان ما يطلب من الممرضة ليس سوى المكوث في غرفة المريض واعطائه العلاج الذي يأمر به الطبيب.

عاد الدكتور ريجنما تير ساليس بعد ذلك باربعة أيام، حيث أجرى عملية قلب مفتوح معقدة استمرت ساعات، ثم شكرها باختصار ليختفي بعد ذلك مرة أخرى. وفي اليوم التالي اخذت يومي عطلتها حيث طافت أثناءهما على مكاتب التمريض، فقد كان الوقت يمر بسرعة.

وعندما عادت إلى العمل، قابلته وهي في طريقها إلى تناول العشاء، وكانت تعتزم متابعة السير بعد ان تلقي عليه تحية مهذبة، ولكنه مد ذراعه يوقفها قائلاً: «ليس بهذه السرعة، أين كنت؟»

«العطلة الأسبوعية.»

«هل ستتركين المستشفى قريباً؟»

«بعد حوالي العشرة أيام.»

«هل لديك وظيفة أخرى؟»

«لم اجد بعد. لقد تأخرت عن العشاء يا سيدي.»

وحاولت الابتعاد. ولكنه عاد يقول: «سأعود أنا إلى هولندا بعد اسبوعين. وممرضة غرفة عملياتي هناك ستأخذ إجازة وضع. وأنا اريدك ان تأخذي مكانها أثناء غيابها.»

فحملقت فيه قائلة: «أنا؟ هولندا؟»

«انها ليست آخر الدنيا، يا أوجيني. انها وظيفة مؤقتة فقط، وسيكون لديك أثناءها الوقت الكافي لتصلي إلى قرار في ما عليك ان تقومي به.»

فتحت فمها لكي ترفض، ولكنه سارع يقول: «كلا. لا أريد جوابك الآن. اذهبي وتناولي عشاءك ثم فكري بالأمر ملياً، واخبريني بقرارك بعد يومين.»

ثم ذهب وتركها واقفة في منتصف الممر وهي تتساءل عما إذا كان كل هذا الحديث مجرد حلم. وعلى مائدة العشاء، قررت انه لم يكن حلماً، فهو ليس بالرجل الذي يضيع وقته في المزاح.

وقالت لها إحدى صديقاتها اللاتي حول المائدة: «ان حالتك غريبة يا أوجيني، فانت بعيدة عن هنا اميالاً بعيدة.»

وقد كانت فعلاً في هولندا... إنما في الخيال.

واقفاً أمامها، وقال لها بلهجة غاضبة: «لقد تأخرت.» شعرت بالضيق. فقد كانت تشعر بالتعب وعدم الاستقرار وتعاسة لا تدرك كنهها. فأجابته بحدة: «انني متعبة...»

«في هذه الحالة لن أؤخرك طويلاً. انني ذاهب هذا المساء إلى ليفربول وقد لا أراك قبل عودتي إلى هولندا. لو كان مزاجك حسناً، لفكرت في دعوتك إلى تناول العشاء في الخارج ليمكننا الحديث عن الوظيفة. ولكن مادمت لا تشعرين بان في امكانك ذلك، فسأقدم اليك التعليمات مكتوبة وكذلك كل المعلومات التي قد تحتاجينها.»

فابتدأت تقول: «آه، لم اكن اعني...» ولكنه قاطعها بقوله: «لا تهتمي بذلك. سأراك في غرونينجن.»

وقف جانباً يفسح لها الطريق لتمر، وإذ رأت من نظرة واحدة إلى وجهه أن أي اعتراض على ما قاله، لن يفيد أبداً، تمتمت بالتحية ثم تابعت طريقها. انه رجل مزعج حقاً، فهو يتوقع منها تقبل كل ما يقوله دون اي مناقشة. وعبست. لم تكن تعرف اين تقع غرونينجن تلك. فكيف تذهب إلى هناك، ومتى؟ إنما ما كان لها أن تقلق. ففي الصباح التالي عندما خرجت للعمل، وجدت مغلفاً كبيراً معنوناً باسمها وذلك على مكتب الممرضة كروس. لم تجد وقتاً للاطلاع عليه قبل حضور تلك السيدة إلى مكتبها، وقبل ان تفكر في ان تقوم بذلك في غرفة الممرضات لتغيير الملابس، بادرتها الممرضة كروس بقولها: «أرى ان تقفي انت مع الدكتور، فإن امامي العديد من الأوراق الرسمية علي ان املأها. عملية فتح صدر، أليس كذلك؟ سمعت أن الدكتور بيير سيء المزاج هذا الصباح.»

وكان كذلك في الواقع. وهكذا لم تستطع أوجيني ان تفتح المغلف للاطلاع على ما فيه، قبل ان تنهي عمل اليوم ذلك المساء. كانت محتوياته ذات أهمية. فقد كان يحتوي على تذكرة سفر بالطائرة، وبرنامج وإرشادات مطبوعة، ورقعة موقعة باسم ريجنما تير ساليس. قرأت الرقعة أولاً والتي كان يطلب منها فيها ان تقرأ الارشادات بعناية، وتضع حساباً دقيقاً لنفقاتها أثناء السفر، لكي تعاد إليها فيما بعد، وتتذكر احضار جواز السفر ثم تجهز نفسها للسفر في اليوم المشار إليه في تذكرة السفر. وهذا سيكون بعد تركها المستشفى بثلاثة أيام ما سيسمح لها بتحضير ما ستكون بحاجة إليه والاطمئنان على والديها.

قرأت بعد ذلك ان رحلتها ستكون مباشرة إلى غرونينجن، وحيث أنها ستمضي اياماً معينة في الأسبوع تحت الطلب عند الطوارىء، فمن الأفضل لها ان يكون سكنها في المستشفى. وستأخذ ثلاثة أيام عطلة اسبوعية، وثلاث ساعات فراغ يومياً، وستعطى مهلة أسبوع قبل ترك العمل. وكان هذا شيئاً غير عادي، كما اشير إلى ذلك في الأوراق، ولكن التاريخ المعين لعودة ممرضة العمليات إلى عملها الدائم، لم يكن محدداً بعد. وهي ستستلم نفس الراتب الذي تستلمه نظيرتها الهولندية، والدفع شهرياً، كانت التفاصيل بالنسبة للمستشفى، موجزة، وعندما انهت القراءة، لم تستطع ان تجد سؤالاً واحداً بحاجة إلى معرفة جوابه.

فكرت في أن هذه منتهى الكفاءة منه، ولكنها تمتمت تقول: كان بإمكانه ان يخبرني بكل هذا شفهياً. وسمعتها إحدى زميلاتها الجالسات في غرفة الجلوس، فسألتها عن

الفصل الثالث

لم يكن من الصعب على أوجيني أن تقرر ما ستفعله إزاء عرض الدكتور ريجنما تير ساليس ذاك. فقد كانت هذا فالاً طيباً، رغم انها لم تكن واثقة من الخير الذي سيعود به عليها ذلك، ماعدا انه سيسمح لها بأن تكون بقربه لمدة اسابيع، وذلك في الوقت الذي كانت تعد نفسها فيه لإلقاء كلمة الوداع عليه، ثم لا تقع عينها عليه مرة أخرى.

ربما سيكون بإمكانها ان تكتشف شيئاً عن حياته، وعن أسرته وعن الفتاة التي سيتزوجها.

كانت معرفة ذلك ستؤلمها بالطبع، ولكنها ستتوقف بعدها عن احلام اليقظة...

لقد سافر الرجل المتعب مرة أخرى، فقد اخبرتها الممرضة كروس بذلك وهما تتناولان القهوة في الصباح التالي. قالت: «بيرمنغهام. طعنة من سكين مست شغاف القلب. وقد سافر إلى هناك أثناء الليل.»

فقالت أوجيني بخجل محاولة استدراجها إلى المزيد من الكلام: «يبدو أنه يتعب جداً في عمله.»

«يتعب أكثر من اللازم. لقد حان الوقت ليستقر مع زوجة تمنعه من ذلك. وهو سيتزوج قريباً في هولندا، كما سمعت، وهذا شيء حسن، ذلك ان نصف الممرضات واقعات في غرامه.»

ولم تعلق أوجيني على هذا بشيء. انها لا تهتم

للمرضات، وإنما لتلك الفتاة في هولندا، تلك التي سبق وسرقت قلبه قبل ان تعرفه أوجيني. وما لبثت ان دخلت إلى غرف العمليات تتفحصها. ولم يسمح لها انشغالها، بالتفكير فيه إلا بعد ذلك بوقت كبير. رأت ان قبولها الوظيفة التي عرضها عليها، سيقود إلى أشياء أخرى، صحيح انها لم تكن فتاة مغرورة بنفسها، ولكنها لم تكن تستطيع تجاهل جمالها الصاعق، هذا إلى ذكاء مقبول. كانت واثقة، نوعاً ما من ان بإمكانها، إذا سنحت لها فرصة، ان تثير في نفس ريجنما تير ساليس شيئاً اكثر من مجرد الصداقة الباردة التي رأتها منه حتى الآن، فهي حلوة الشخصية بقدر ما هي جميلة... فإذا كان يحب فتاته تلك، فلن تكون هي بالنسبة إليه، اكثر من ممرضة غرفة عمليات موقتة، تريه نفس الصداقة الباردة التي تراها هي منه. سيكون الأمر صعباً، ولكنها مستعدة تماماً لهذا. حدثت نفسها بأنها ستحاول الاستفادة من هذه الأسابيع القليلة التي ستقضيها معه، وبعد ذلك تتابع حياتها من دونه، تشبه بذلك بطلة لرواية عاطفية.

* * *

مازال ليس هناك أثراً له. ذهبت إلى بيتها بسيارتها في إجازتها التالية، واخبرت أمها عن عرض الدكتور ريجنما ذاك عليها، فسألتها هذه: «وهل ستقبلين؟»

«نعم. سيكون ذلك لمدة اسابيع قليلة. فممرضة غرفة عملياته الخاصة في إجازة وضع. وهناك ممرضة أخرى ستأخذ مكانها، ولكنها غائبة لبعض الوقت، وهكذا، إذا انا

ملأت ذلك المكان الشاغر، فإن ذلك سيمنحني فرصة اتدبر فيها أمري...»

ووافقتها أمها على ذلك، بهدوء. لقد خطر لها ان وجود ابنتها في هولندا يجعل من الصعب عليها تدبر أمر وظيفة في انكلترا، ولكنها لم تقل هذا. فقد تذكرت وقد انتابها الضيق، ان اوجيني كانت قالت لها مرة انها تتمنى لو تتزوجه. وهي تعلم ان ابنتها شابة ذات عزم وإصرار.

قالت اوجيني بلهجة واقعية: «انني أعلم ما تفكرين فيه، ولكن ليس لك ان تقلقي. انني ساستمتع بالعمل عنده، فهو جراح عظيم، وقد عملنا معاً، وهو يبدي نحوي مودة انما جافة متحفظة.» وتنهدت: «اظنه رجلاً يخلص تماماً إذا هو أحب فتاة.»

«نعم يا حبيبتي. انه سيكون زوجاً رائعاً. انها فتاة محظوظة.» وألقت نظرة على وجه ابنتها البشوش الحازم في نفس الوقت. «والآن اخبريني بالمزيد عن هذه الوظيفة. انها فرصة رائعة ترين فيها هولندا.»

«ليس لدي أي فكرة عن المكان الذي سأذهب إليه... فهو لم يزد على ان سألني ان كنت اقبل ان اعمل عنده لعدة اسابيع وطلب مني التفكير في ذلك. ولم أره منذ ذلك الحين ولا أعلم متى يعود... انه دوماً يأتي ويذهب...»

«اظن من المحتمل انه سيكون في المستشفى حين عودتك، يا عزيزتي.» واضافت: «ان جوشا واطس سيأتي لتناول العشاء عندنا. ان اباك يريد ان يتحدث معه في بعض الأمور.»

فقالت أوجيني باستياء: «آه، يا أمي...» ثم أضافت

بسرعة: «آسفة، ان عليه ان يحضر طبعاً. فهو لا يريد سوى ان ينظر إليّ.»

«نعم يا عزيزتي. انني اعرف ما تعنين انما إذا انت سافرت لعدة أسابيع، ربما تجدين، عند عودتك، انه قد رحل.»

«هذا صحيح، وسأعامله بغاية اللطف.» وقد كان هذا خطأ منها إذ اعتبره تشجيعاً له ومن ثم فرض حولها نوعاً من الشعور بالتملك ما أثار غيظها. وهكذا، عندما ودعته عند الباب، أرادت ان تترك عنده انطباعاً بأنها مسافرة لعدة اسابيع حيث سيكون، عند عودتها، قد رحل.

لكنه ابتسم وهو يربت على يدها ملقياً عليها نظرة خاصة جعلتها تشعر بالغثيان، ويقول: «ربما سأكون مازلت هنا. فأبوك ليس قوياً إلى حد كاف.»

فتملكها الغضب. فسحبت يدها ثم صفقت الباب خلفه بعنف، لتتحول بعد ذلك إلى المطبخ لتساعد أمها في غسل الأطباق.

سألتها أمها: «هل كان مزعجاً؟»

«كان مزعجاً فقط؟ انه فظيع يا أمي. فهو مغرور، عديم الاحساس. هل ستستمر إقامته هنا طويلاً؟»

«كلا يا عزيزتي، ان أباك يشعر بالقدرة على العودة إلى العمل، وعندما تعودين، يكون هو قد رحل.»

«هل ستكونان بخير إذا أنا ذهبت؟ انني أنوي ان احصل على عمل بواسطة مكتب تمريض ليكون بإمكاني الحضور إلى البيت فيما لو احتجتم إليّ.»

«انني متأكدة من أن ذلك الدكتور ريجنما تير ساليس

سيسمح لك بالعودة حالاً إذا نحن احتجنا اليك. ولكن حالة أبيك تحسنت كثيراً وسيلاحظه الدكتور شاو على الدوام.»

وهكذا عادت أوجيني إلى المستشفى مطمئنة نوعاً ما، إلى أن الحياة بالنسبة إلى والديها قد عادت إلى طبيعتها، وان بإمكانها ان تستمر في حياتها الخاصة مرة أخرى. وهذا ما ستقوم به عندما تعود من هولندا.

كانت تتناول القهوة مع الممرضة كروس بينما الممرضة الأخرى تقف بجانب الطبيب الذي كان يعالج جرحاً في غرفة أخرى، عندما دخل. شاركهما في تناول فنجان شاي، ثم أخذ يتحدث مع الممرضة كروس عن عمل هذا النهار، ثم تحول إليها يسألها فجأة: «هل قررت قبول ما عرضته عليك، يا أوجيني؟»

فأجابت وهي ترى الممرضة كروس تنظر إليها بدهشة: «نعم، شكراً يا سيدي. ساشتغل عندك بكل سرور.»

فسألت الممرضة كروس: «عم تتحدثان؟ هذه أول مرة اسمع فيها هذا.»

منحها الدكتور ريجنما تير ساليس إحدى ابتساماته الفاتنة وقال: «لقد تكرمت أوجيني علي بالعمل عندي لعدة اسابيع إلى أن تعود ممرضتي الخاصة.»

«واين سيكون هذا؟ في هولندا؟»

«في اكثر البلدان، فانا احب ان آخذ معي ممرضتي الخاصة لتساعدني اينما ذهبت... طبعاً لا حاجة لذلك هنا، ولكن هذا يجعل الأمور اسهل كثيراً في الشرق الأوسط أو أميركا أو بعض بلدان البحر المتوسط.»

فوافقته الممرضة كروس، بعد ان فكرت برهة، بينما لم

تقل أوجيني شيئاً، لقد رأت الحياة تمتلىء فجاة بالإمكانيات المشوقة.

وانتبهت من هذه الأفكار السارة إلى الدكتور ريجنما يقول لها بلهجة عملية: «اظن عملك سينتهي آخر الأسبوع القادم. اما انا فسارحل خلال الأيام القليلة القادمة، ولكنني ساقوم بكل تدابير سفرك. هل لديك جواز سفر؟»

فأومأت بالإيجاب: «هذا حسن. ساعطيك التفاصيل قبل رحيلي.»

وعندما خرج، قالت الممرضة كروس لأوجيني: «انك فتاة محظوظة حقاً يا الممرضة سبنسر، إذ ان هذه الرحلة ستزودك بخبرة جيدة وربما سيمنحك، بعد ذلك، شهادة ممتازة... لقد سبق وذكرت شيئاً عن العمل مع مكاتب التمريض... انهم سيتهافتون عليك بعدها. انه سيكون عوناً كبيراً بالنسبة لمستقبلك.»

ان بإمكانه ذلك حقاً. ومن المؤسف جداً أنه لم يكن لديها رغبة في الحصول على وظيفة. انها تريد ان تكون زوجة فقط... وزوجته هو.

كانت هناك قائمة لعمليات بعد الظهر. وقد استلمت أوجيني مسؤوليتها حيث ان الممرضة كروس كانت خارج العمل. وعندما عادت إلى عملها، كانت آخر عملية قد انتهت، وقد عادت أوجيني إلى ملابس التمريض العادية وجلست تكتب التقرير اليومي قبل خروجها. فجلست الممرضة كروس واخذت المرأتان تخوضان في احاديث شتى قبل ان تنهض أوجيني تاركة القسم بعد ان انتهى عملها، ولكنها ما ان فتحت الباب حتى وجدت الدكتور ريجنما تير ساليس

واقفاً أمامها، وقال لها بلهجة غاضبة: «لقد تأخرت.» شعرت بالضيق. فقد كانت تشعر بالتعب وعدم الاستقرار وتعاسة لا تدرك كنهها. فأجابته بحدة: «انني متعبة...»

«في هذه الحالة لن أؤخرك طويلاً. انني ذاهب هذا المساء إلى ليفربول وقد لا أراك قبل عودتي إلى هولندا. لو كان مزاجك حسناً، لفكرت في دعوتك إلى تناول العشاء في الخارج ليمكننا الحديث عن الوظيفة. ولكن مادمت لا تشعرين بان في امكانك ذلك، فسأقدم اليك التعليمات مكتوبة وكذلك كل المعلومات التي قد تحتاجينها.»

فابتدأت تقول: «آه، لم اكن اعني...» ولكنه قاطعها بقوله: «لا تهتمي بذلك. سأراك في غرونينجن.»

وقف جانباً يفسح لها الطريق لتمر، وإذ رأت من نظرة واحدة إلى وجهه أن أي اعتراض على ما قاله، لن يفيد أبداً، تمتمت بالتحية ثم تابعت طريقها. انه رجل مزعج حقاً، فهو يتوقع منها تقبل كل ما يقوله دون اي مناقشة. وعبست. لم تكن تعرف اين تقع غرونينجن تلك. فكيف تذهب إلى هناك، ومتى؟ إنما ما كان لها أن تقلق. ففي الصباح التالي عندما خرجت للعمل، وجدت مغلفاً كبيراً معنوناً باسمها وذلك على مكتب الممرضة كروس. لم تجد وقتاً للاطلاع عليه قبل حضور تلك السيدة إلى مكتبها، وقبل ان تفكر في ان تقوم بذلك في غرفة الممرضات لتغيير الملابس، بادرتها الممرضة كروس بقولها: «أرى ان تقفي انت مع الدكتور، فإن امامي العديد من الأوراق الرسمية علي ان املأها. عملية فتح صدر، أليس كذلك؟ سمعت أن الدكتور بيير سيء المزاج هذا الصباح.»

وكان كذلك في الواقع. وهكذا لم تستطع أوجيني ان تفتح المغلف للاطلاع على ما فيه، قبل ان تنهي عمل اليوم ذلك المساء. كانت محتوياته ذات أهمية. فقد كان يحتوي على تذكرة سفر بالطائرة، وبرنامج وإرشادات مطبوعة، ورقعة موقعة باسم ريجنما تير ساليس. قرأت الرقعة أولاً والتي كان يطلب منها فيها ان تقرأ الارشادات بعناية، وتضع حساباً دقيقاً لنفقاتها أثناء السفر، لكي تعاد إليها فيما بعد، وتتذكر احضار جواز السفر ثم تجهز نفسها للسفر في اليوم المشار إليه في تذكرة السفر. وهذا سيكون بعد تركها المستشفى بثلاثة أيام ما سيسمح لها بتحضير ما ستكون بحاجة إليه والاطمئنان على والديها.

قرأت بعد ذلك ان رحلتها ستكون مباشرة إلى غرونينجن، وحيث أنها ستمضي اياماً معينة في الأسبوع تحت الطلب عند الطوارىء، فمن الأفضل لها ان يكون سكنها في المستشفى. وستأخذ ثلاثة أيام عطلة اسبوعية، وثلاث ساعات فراغ يومياً، وستعطى مهلة أسبوع قبل ترك العمل. وكان هذا شيئاً غير عادي، كما اشير إلى ذلك في الأوراق، ولكن التاريخ المعين لعودة ممرضة العمليات إلى عملها الدائم، لم يكن محدداً بعد. وهي ستستلم نفس الراتب الذي تستلمه نظيرتها الهولندية، والدفع شهرياً، كانت التفاصيل بالنسبة للمستشفى، موجزة، وعندما انهت القراءة، لم تستطع ان تجد سؤالاً واحداً بحاجة إلى معرفة جوابه.

فكرت في أن هذه منتهى الكفاءة منه، ولكنها تمتمت تقول: كان بإمكانه ان يخبرني بكل هذا شفهياً. وسمعتها إحدى زميلاتها الجالسات في غرفة الجلوس، فسألتها عن

الأمر، ولم تجد هي سبباً للسرية، فحدثتها عن سفرها إلى هولندا عندما تترك المستشفى، فكان الجواب هتافات الحسد وطلب معرفة كل التفاصيل، وكيف انها محظوظة.

وفي سريرها تلك الليلة، فكرت في انها محظوظة حقاً. فهي قد استقرت إلى عمل بعد خروجها من المستشفى، واطمأنت على صحة أبيها، وقبل كل شيء، ستكون بجانب ريجنما تير ساليس. فكرت فيه والنعاس يغالبها، ثم نامت وهي تفكر في أن عليها ان تكتشف اسمه الأول في أقرب وقت ممكن، لقد كان ذكره عندما تعارفا لأول مرة، ولكنها نسيته، وهي ستسأله عنه في أول مرة تراه فيها بعد الآن.

إنما لم يكن هذا ممكناً الآن حيث أنه لم يعد في هذه البلاد.

لكملت حزم امتعتها، ودارت على صديقاتها تودعهن، شاعرة بالأسف لترك هذا المستشفى الذي تعلمت فيه مهنتها وأكملت تدريبها إلى ان اصبحت عضواً ماهراً في الهيئة التمريضية ولكن، ربما لو لم يكن الأمر يتعلق بوجود الدكتور ريجنما تير ساليس، لشعرت بالأسف حقاً لذلك. وهكذا استقلت سيارتها، ولوحت بيدها لصديقاتها اللاتي خرجن معها حتى الباب يودعنها، ثم توجهت منطلقة نحو بلدتها. كان الوقت في الصباح الباكر وكان النهار رائعاً، وعندما خلفت لندن وراءها، ابتدأت تستمتع بالرحلة. مازال أمامها يومان قبل السفر إلى هولندا، وبلدتها دارتمور بالغة الجمال في شهر أيار (مايو).

لم يكن اليومان كافيين بالطبع، فقد كان عليها ان تفرغ امتعتها وثيابها، لتأخذ معها ثياباً أخرى كانت مؤلفة من

قمصان وتنانير وكنزات خفيفة ومعطف واقٍ من المطر وسترة قصيرة واقية للمطر أيضاً ثم، حيث هناك احياناً أجواء دافئة، اخذت ثوباً خفيفاً من قماش الجيرسيه، وثوباً حريرياً بلون العسل. كما ألحت عليها أمها أن تأخذ معها تنورة من الشيفون ذات ثنايا، بلون الشيكولاتة، وقميصها ذا اللون البني الفاتح، ونظرت أمها من النافذة قائلة: «ان الجو دافىء حقاً. يمكنك ان تشتري ثياباً صيفية هناك.»

أومأت أوجيني برأسها وهي تجيب شاردة الذهن: «لا أدري كيف ستكون ملابس التمريض هناك، فأنا اكره عدم وضع القبعة البيضاء على رأسي...»

فقالت الأم: «حسناً يا عزيزتي، اظنك ستمضين اغلب وقتك، هناك، مرتدية ملابس العمليات. انك ستتصلين بنا هاتفياً حال وصولك إلى هناك، أليس كذلك؟»

«في اللحظة التي أتمكن بها من ذلك، يا أمي، وساكتب إليكما على الدوام، وإذا كنت مشغولة فسارسل بطاقة بريدية.»

اقفلت أوجيني حقيبتها وهي تقول: «بما انني انهيت كل شيء، فسيكون بإمكاني الآن امتاع نفسي. هل يريد مني أبي ان اقوم لأجله بشيء معين أثناء وجودي في البيت؟»

نزلتا معاً فوجدا الأب في مكتبه، فبادرها بقوله: «عليّ ان اقوم بتدريب الكشافة الأحد القادم. وسيرافقني جوشا للمساعدة في ذلك.»

فسالته أوجيني: «متى سيرحل من هنا؟»

«بعد شهر كما أظن. وسيأخذ إجازة قصيرة قبل ان يتوجه للإلتحاق بمدرسة أخرى في ليفربول.»

«هل سيسير الأمر معك على مايرام بدونه؟»

أجاب الأب بلهجة جافة: «آه، نعم، يا عزيزتي. ان جوشا سيأتي للعشاء هذه الليلة.» ولمعت عيناه من خلف نظارتيه.

فأضافت أمها تقول: «لقد دعا نفسه بنفسه، يا عزيزتي... فهو يريد ان يودعك.»

أمسكت أوجيني عن التلفظ بكلمات كانت ستذهل والديها لو سمعاها منها، ثم قالت: «لكنه سبق وودعني من قبل، أليس ممكناً أن احتج بإصابتي بصداع؟»

«ولكنك لم تصابي بصداع قط في حياتك، يا عزيزتي، وربما جعله ذلك يأتي مرة أخرى غداً ليطمئن عليك.»

«إذن يمكنني أن أذهب باكراً إلى فراشي لأنني متعبة...»

وصل الاستاذ جوشا واطس مبكراً، وبقي إلى ساعة متأخرة، وحيث أنها رأت ان أباها كان متعباً، فقد بقيت ساهرة معه بطبيعة الحال، مستمعة بأدب إلى ما عقد العزم عليه بالنسبة إلى المدرسة التي سيذهب إليها، وكيف سيديرها وماذا ينوي أن يقوم به... لقد خطط لكل شيء، ولم تملك هي إلا الاعجاب بحماسه هذا، رغم ان اعجابها ذاك قد تبدد نوعاً ما حين نظر إليها قائلاً انه يأمل في زوجة تفهم طبيعة عمله وتعاونه.

فقالت بمرح: «انني واثقة من انك ستجد المرأة التي توافقك.» وزاد مرحها حين خرج أخيراً وهو يتمتم قائلاً: «ياليتك تغيرين رأيك يا أوجيني.»

كان اليوم الذي بقي لها يوماً سعيداً، حيث طافت أرجاء الحديقة، ثم دارت على اصدقائها في القرية مودعة، وتمشت مع الكلب تايغر، وهي تخاطبه قائلة إذ تستند إلى جذع

شجرة ناظرة إلى ما حولها: «سأشتاق إلى كل هذا.» كانت تحاول أن تطبع كل ما تراه في ذاكرتها رغم انها كانت تعرفها غيابياً.

كان مات، الذي يعمل في مخازن القرية، سيذهب معها إلى لندن ليعود بسيارتها، فجلس بجانبها حين تركت البيت في صباح اليوم التالي، ولولا وجوده لبكت حين الوداع. وهكذا لوّحت بيدها بمرح لوالديها اللذين كانا يقفان عند الباب، ثم انطلقت بالسيارة إلى الطريق العام الذي يقود إلى اكزيتر.

عرفت مات طوال حياتها، فقد كان حارس المدرسة، ويملك سيارة أجرة لتأجيرها لمن يشاء، كما انه يدير المخازن، فيبيع كل شيء تقريباً. قال لها: «ان والدك بحاجة إلى العناية، حيث انه عاد فاستلم العمل. اننا سنعتني به تماماً، يا أوجيني، وبأمك أيضاً.»

«أعلم انكم ستقومون بذلك، يا مات، وإلا لما رضيت بالسفر، ولا تنسى ان تتصل بي هاتفياً إذا ما... إذا حدث أي شيء. ان رقم هاتفي مع أوراق السيارة، عند ذلك سآتي حالاً.»

«هل سيسمحون لك بذلك؟ انك ستعملين عند ذلك الدكتور، أليس كذلك؟ يبدو انه رجل حسن.»

«انه كذلك، هذا إلى أنه مدين لي... تذكر هذا، فقد عثرت عليه عندما كان تائهاً في الضباب...» وضحك الاثنان.

قال: «ان الضباب شيء كريه، فالمرء لا يستطيع فيه ان يجد طريقه.»

ودعته في مطار هيثرو قائلة بأسى: «سأرسل اليك بطاقة.» ثم دخلت المطار.

لم تكن الرحلة مريحة. تناولت الوجبة الخفيفة التي قدمت لها حيث كانت جائعة تماماً، ثم قرأت مجلة في يدها، وتفحصت محتويات حقيبة يدها، ونظرت من النافذة إلى أسفل رغم انه لم يكن هناك مايرى، وهم فوق السحاب، كان النظر إلى لا شيء يشعرها بالراحة، ولكنها انتبهت من ذلك إلى المضيفة تقدم إليها قطع الحلوى. ثم مالبثت ان سمعتهم يذيعون انهم اصبحوا على وشك الوصول.

بدت الأرض خضراء تحت السحاب، وقد انتشرت القرى هنا وهناك، ولم يكن يجلس على المقعد بجانبها أحد، فسألت المضيفة: «هل المطار يبعد كثيراً عن غرونينجن؟»

«عشرة كيلومترات إلى وسط المدينة، هل هناك من سيستقبلك؟»

«اظن ذلك.» فابتسمت الفتاة وهي تبتعد، بينما عادت أوجيني تنظر من النافذة إلى الأرض وهي تقترب منهم شيئاً فشيئاً، لم يكن في الإرشادات عندها ما يشير إلى أنه سيستقبلها أحد. فالمفروض ان يكون هناك باص أو قطار يحملها إلى داخل المدينة، ولا بد ان ريجنما تير ساليس يتوقع انها من الكفاءة بحيث تستطيع الوصول إلى المستشفى بعد ذلك، ومن المحتمل انه كان كلف بكتابة تلك الإرشادات سكرتيرة أو أي شخص آخر.

كانت آخر شخص ترك الطائرة، إذ لم يكن هناك من يستعجلها وكان عليها ان تجد طريقها بنفسها. اخذت حقيبتها من قاعة الجمرك لتخرج بعد ذلك إلى قاعة الاستقبال.

وضعت الحقيبة على الأرض، ثم اخذت تنظر حولها. كان

هناك عدد من الناس، انما لم يكن المكان مزدحماً مثل مطار هيثرو. ابتدأت تقرأ الإرشادات المختلفة متحركة ببطء. وكانت أكملت دورة كاملة عندما انتبهت إلى الدكتور ريجنما تير ساليس واقفاً يشرف عليها وفي يده حقيبتها.

فلم تجد ما تقوله سوى كلمة: «حسناً». فابتسم بطريقة بدت لها مترفعة، وقال: «أوجيني. أهلاً بك في غرونينجن.»

فقالت ببرود: «لم أجد إشارة في إرشاداتك تقول انه سيستقبلني أحد.»

أجاب هازلاً: «جعلتها مفاجأة لك.» ورغم سرورها برؤيته، إلا انها عبست إذ ظنت أنه يضحك منها.

«انها مفاجأة فعلاً. هل سأذهب إلى المستشفى مباشرة؟» ثم احمر وجهها إذ انتبهت إلى ان كلامها هذا يعني انها تتوقع منه ان يأخذها معه إلى مكان آخر... ان فنجان شاي في مقهى هو شيء لطيف.

ولكنه أجاب: «نعم. ان السيارة في الخارج. هل نذهب؟»

تبعته إلى المدخل حيث رأت سيارته البتلي واقفة، وعندما وصلا إليها رأت أوجيني أن فيها شخصاً ما، امرأة جالسة في المقعد الأمامي، ففتح الدكتور ريجنما باب السيارة لها مشيراً إليها بالجلوس في المقعد الخلفي وهو يقول: «سافيرا، دعيني اقدم اليك أوجيني سبنسر.» ونظر إلى أوجيني قائلاً: «خطيبتي...»

واستدار يضع حقيبتها في صندوق السيارة بينما قالت سافيرا بأدب عادي: «مرحباً. هل كانت رحلتك جيدة؟»

كانت ابتسامتها باهتة، إنما عيناها الزرقاوان أخذتا تتفحصانها بنظرة شاملة. كانت حسنة الشكل متناسبة

التقاطيع ذات شعر اشقر بالغ القصر، وفي بداية الثلاثينات من العمر كما رأت اوجيني شاعرة بالنفور منها. ولكنها ابتسمت لها تجيبها: «كانت جيدة جداً. شكراً.»

عاد الدكتور ريجنما تير ساليس إلى مقعده، ثم أومأ برأسه إلى شيء قالته له سافيرا بصوت خافت، ومالبث ان نظر من فوق كتفه ليسأل أوجيني عما إذا كانت مرتاحة، قبل ان يتحرك بالسيارة مبتعداً عن المطار.

أخذت أوجيني تنظر من النافذة محاولة أن تظهر على وجهها إمارات الاستمتاع بينما كانت أفكارها تغلي داخلها، لماذا احضر خطيبته لاستقبالها؟ ونكرها صوت داخلي بانه مقدم على الزواج ولا يهتم بأوجيني بصفتها امرأة، وإنما فقط بصفتها ممرضة عمليات، ولم تشك في ان هذا كان استجابة لطلب سافيرا نفسها. اتراه ندم لعرضه هذا العمل، عليها؟ وأسوأ من ذلك، ما إذا كان لديه فكرة عن شعورها نحوه، وشعرت بحرارتها ترتفع لهذه الفكرة... وتمنت فجأة لو أنها لم تحضر، ولكن مادامت هنا الآن، فستتصرف بافضل شكل يمكنها. لن تدع له مجالاً للشكوى من عملها، وستنتبه على الدوام إلى ان تبدو أمامه عملية تماماً.

قال لها وهم يصلون إلى ضواحي المدينة: «سأوصلك إلى المستشفى مباشرة، وستكونين مسرورة إذ تستقرين.»

شكرته بصوت رزين بينما قالت سافيرا بصوتها العالي الحاد النبرات: «هل ستعود معي، يا إيديريك؟»

كانت لغتها الانكليزية قريبة من الإتقان، وتملك أوجيني الحنق، ولكنها، على الأقل، تنكرت اسمه الأول، وسرها هذا.

بدت لها المدينة جميلة وهم يخترقون شوارعها.

قال لها: «ان من السهل ان تجدي طريقك هنا، فإن كل الشوارع تتفرع من الساحة المركزية كما ان المستشفى قريب منها.»

وصلوا إلى بناء جميل قديم الطراز كما رأته أوجيني وهي تنظر إليه من نافذة السيارة، وخرج الدكتور ريجنما تير ساليس ثم استدار يحضر حقيبتها من الصندوق، فيناولها إلى حمال هناك ثم يساعدها على النزول.

قالت سافيرا بصوت بان فيه الضجر: «إلى اللقاء. أرجو ان يسرك العمل هنا.»

شكرتها أوجيني بنفس الصوت الرزين ما جعله ينظر إليها رافعاً حاجبه قليلاً إنما لم يقل شيئاً بل قادها من خلال المدخل إلى أن سلمها إلى رئيس الحراس الذي رفع سماعة الهاتف واخذ يتحدث. ليقف بعد ذلك مائلاً على المكتب.

قالت أوجيني وهي تمد يدها إلى الدكتور: «اشكرك لاستقبالي في المطار.»

فتمتم يقول: «هذا أقل ما يتوجب عليّ عمله. سأقدمك إلى المديرة...»

ووصلت تلك السيدة بعد لحظات، وكانت امرأة طويلة القامة خالط شعرها الأشقر بياض، زرقاء العينين. كانت ملامحها صارمة، ولكنها ابتسمت لأوجيني مرحبة بها، ثم تحولت إلى الدكتور ريجنما تير ساليس، قائلة: «شكراً لاستقبالك الآنسة سبنسر. ان المسافر إلى بلد غريب، يرحب برؤية وجه مألوف لديه في استقباله.» وتصافحا، ثم قال بلطف: «سأراك غداً يا أوجيني. وأنا واثق من ان المديرة ستخبرك عن كل ما تريدين معرفته.»

ثم تحول مبتعداً بينما تحولت المرأتان، يتبعهما الحمال بالحقيبة، حيث اجتازتا الردهة سائرتين في ممر طويل إلى حيث المكتب.

«ستذهبين إلى غرفتك حيث تتناولين فنجاناً من الشاي أو القهوة، انما ساعطيك أولاً أوراقاً تحوي معلومات تعطيك فكرة عن المستشفى ونظامه، ثم تأتين لرؤيتي صباحاً عند الساعة العاشرة، يا آنسة سبنسر، فإذا كانت لديك أية اسئلة، ساجيبك عليها حينذاك.»

أخذت أوجيني الأوراق ثم عادت أدراجها والحمال في اعقابها إلى حيث كان صف من المصاعد آخر القاعة، وفي الطابق الرابع تبعت الحمال الذي قادها خلال باب ذي مصراعين إلى قاعة صغيرة حيث يوجد سلم إلى جانب منها، وحيث خرج لاستقبالها من باب هناك، امرأة مستديرة الوجه يحيط به شعر أبيض.

ابتسمت لأوجيني قائلة: «انني الممرضة كورسما. مرحباً بك يا آنسة سبنسر. سنذهب إلى غرفتك، وسأرسل اليك الشاي. فالانكليز يحبون الشاي، أليس كذلك؟»

كانت معنويات أوجيني قد انخفضت نوعاً ما بسبب نوع استقبال الدكتور ريجنما تير ساليس لها، والترحيب البارد الذي تلقته من المديرة. ولكنه عاد فانتعش الآن لبشاشة هذه المرأة وترحيبها الحار بها. وصعد الثلاثة السلم ليجتازوا ممراً طويلاً قامت على جانبيه الأبواب، إلى حيث وقفت المرأة أمام آخر باب هناك ففتحته وهي تشير إلى أوجيني بالدخول. ووضع الحمال الحقيبة على الأرض ثم خرج.

كانت الغرفة صغيرة إنما جميلة حسنة التأثيث، ذات نافذة تشرف على جزء واسع من الفناء الأخضر، وخلف ذلك كان ما افترضت انه خلفية المستشفى.

اخذت الممرضة كورسما تمهد غطاء السرير وتزيح ستائر النافذة، ثم قالت ببشاشة: «انها غرفة حسنة، أليس كذلك؟ هناك حمام في الناحية المقابلة من الممر ومطبخ في الطرف الآخر منه حيث يمكنك صنع شاي أو قهوة أو بعض الشطائر إذا كنت جائعة، ساتركك الآن، وسياتيك الشاي حالاً وعندما تصبحين مستعدة، انزلي إلى مكتبي.»

ثم خرجت بينما عادت أوجيني تنظر من النافذة، كان المستشفى كبيراً وقائماً في وسط المدينة حسب رؤيتها له. ولكنها ستتاكد من ذلك فيما بعد. أما الآن فعليها ان تنظم امتعتها وتقرأ الأوراق التي أعطيت لها ثم تذهب لرؤية الممرضة كورسما...

كانت قد انهت اخراج امتعتها من الحقيبة تقريباً عندما اتتها فتاة صغيرة بالشاي، فشربته أوجيني وهي واقفة امام النافذة تنظر منها إلى الخارج، لتنزل بعد ذلك إلى مكتب الممرضة كورسما ومن هناك إلى المخازن حيث جهزوا لها ملابس التمريض، وبعد ذلك جالو بها أنحاء المستشفى حيث قدموها إلى عدد من الممرضات اللاتي نسيت اسمائهن على الفور.

تناولت عشاءها وهي في حالة ذهول. لم يكن الأمر سيئاً عندما كان يتحدث إليها احد بالانكليزية، انما اللغو الضاحك الدائر في مابدا لها كلاماً فارغاً، جعلها تتساءل عما إذا كانت اقدمت على خطوة أوسع مما تستطيعها. أوت

إلى فراشها اخيراً مقتنعة بأنها لن تتمكن من النوم، ولكنها سرعان ما استغرقت في النوم حالما أغمضت عينيها.

في الصباح، كان كل شيء طبعاً، على أحسن حال. جلست بين فتاتين تجيدان الانكليزية حيث استمعت إلى نصائحهن اثناء تناولهن طعام الإفطار، وعندما ذهبت لاستلام العمل، شعرت على الفور وكأنها في غرفة العمليات في وطنها رغم انهم كانوا يتحدثون الهولندية عندما لم يكونوا يتحدثون إليها. وبما أن الدكتور ريجنما تير ساليس سيجري عملياته بعد الظهر، فقد أمضت الصباح ملازمة للممرضة المسؤولة، ولم تكن قائمة العمليات طويلة، وقد طمأنها مارأته من تقبل الجراحين، الذين قدمت اليهم، لها تقبلاً حسناً. فوقفت مع الجراح في آخر عملية، وكانت عملية استئصال الزائدة الدودية، فقط لتقوم بشيء ما... ولولا مسألة اللغة لظنت نفسها في مستشفاها في بلدها.

كانت العملية التي سيجريها ريجنما تير ساليس مسجلة للساعة الثانية بعد الظهر، وفي الموعد المحدد تماماً، دخل هذا غرفة العمليات، فأشار برأسه محيياً أوجيني وكأنه تعود رؤيتها هناك منذ سنوات، ثم سألها بأدب عما إذا كانت مستعدة، ومن ثم ابتدأ العمل. كان هناك طبعاً عدد من الأشخاص الذين كانت أوجيني اجتمعت بهم طوال فترة الصباح، ولكنها الآن لم تستطع التمييز بينهم وهم يضعون الأمتعة وأثواب العمليات الفضفاضة. لم تكن تميز سوى الدكتور ريجنما تير ساليس الذي كان يقف بجانبها منحنياً على المريض، يسألها من وقت لآخر، ان تناوله هذه الآلة أو

تلك، ويتمتم بشيء لمساعديه احياناً باللغة الانكليزية لكي لا تشعر بنفسها بعيدة عما يجري...

حالما انتهت العملية ونقل المريض إلى غرفة العناية الفائقة، ترك الرجال غرفة العمليات بينما ابتدأت هي تعيد تنظيمها مع اثنتين من الممرضات. كان وقت تناول الشاي قد مر منذ فترة طويلة. ويبدو ان العادة السارة في مستشفيات بلادها، وهي ان يدخل الجراحون والممرضات المكتب بعد انهاء العملية، حيث يتناولون الشاي وبعض البسكويت، يبدو ان تلك العادة غير معروفة هنا. لا بد أن يكون هناك مقهى قرب المستشفى...

عندما وصلت أخيراً إلى غرفتها، استبدلت ثيابها بثوب من الجيرسيه فوقه سترة واقية من المطر، وحذاء خفيفاً لأن قدميها كانتا تؤلمانها، ثم علقت حقيبتها في كتفها. لم يكن الجو يبدو لها سيئاً من نافذتها، فقد كانت السماء زرقاء باهتة والشمس تتوارى بسرعة خلف أبنية المدينة العالية، فأخرجت شالاً من احد الأدراج ودسته في جيبها. فقد قرأت في إحدى الكتيبات السياحية ان المطر غزير في هذه البلاد.

هبطت السلم لتجد المسكن يعمه الهدوء، فقد كان الجميع إما في العمل وإما في الخارج، ولكنها ما أن وصلت إلى باب الممرضة كورسما حتى فتح وخرج منه الدكتور ريجنما تير ساليس.

سألها: «هل استقر بك المقام؟ لم يكن ثمة شعور بالعصبية في غرفة العمليات هذا الصباح أو بعد الظهر.»

أجابت: «أرجو ألاّ يكون ذلك قد حدث.» كانت قد فوجئت برؤيته... وكانت مفاجأة سارة، لكنها تذكرت انها كانت

وصلت إلى قرار بالإلتزام بالجدية المهنية والتحفظ في تعاملها معه، وهكذا اضافت: «ان قسم العمليات ممتاز، يا سيدي.»

«هل تناولت الشاي؟» وكان يقف أمامها يكاد يسد الممر.

فردت عليه قائلة: «انني متفرغة الآن، وسأتناول الشاي في مكان ما في المدينة...»

«انني اعرف مكاناً لهذا.» وما أن فتحت فاها لتتكلم، حتى اطلت الممرضة كورسما من الباب قائلة: «هل انت ذاهبة لتناول الشاي مع الدكتور ريجمنا تير ساليس؟ انها فكرة جيدة. فأنت وحيدة كما اظن، وليس معك احد.»

فقالت أوجيني بشيء من الحدة: «كلا، كلا. انني ذاهبة للتعرف على الأنحاء قبل العشاء.»

فقال الدكتور ريجنما تير ساليس: «الشاي أولاً.» ثم امسك بذارعها وهو يدلي إلى الممرضة كورسما بملاحظة لم تستطع أوجينا فهمها.

أخذت تقول وهي تسرع مجتازة القاعة لتخرج من الباب: «لا اريد ان...»

«آه، ها انك تتصرفين بحماقة. لقد سبق وانقذتني في دارتمور، وانا الآن انقذك في غرونينجن.» كان قد ابتعد عن المستشفى وهو يتابع قائلاً: «هناك مكان غير بعيد يقدمون فيه شاياً ممتازاً، وأنا أقابل هناك سافيرا احياناً.»

«لقد تأخر الوقت بالنسبة إلى الشاي...»

فلم يجب، وبعد دقائق كان يدفع الباب الزجاجي ثم يجلسها عند مائدة صغيرة قرب النافذة، ثم يجلس أمامها. وكان يبدو على الزبائن حولهم انهم يتناولون العشاء،

ولكن النادل احضر لهما الشاي دون اعتراض على كل حال، إلى طبق مليء بالشطائر وطبق آخر بالكيك، ونسيت أوجيني قرارها الذي كانت اعتمدته، فابتسمت له قائلة: «هذا مكان جميل. ألا تمانع سافيرا في جلوسنا هذا معاً؟»

«تمانع؟ ولماذا تمانع. في الواقع أنها هي التي اقترحت ذلك.»

www.liilas.com
الشجرة الطيبة

الفصل الرابع

استحالت قطعة الحلوى اللذيذة التي كانت أوجيني قد رفعتها لتوها إلى فمها، استحالت إلى مثل الرماد. إذن فهي لا تعدو ان تكون موضعاً لرعايتهما ليس إلا... والأسوأ من ذلك هو أن هذه الرعاية لم يفكر فيها الدكتور ريجنما تير ساليس بنفسه. وتجلت الكراهية التي كانت أوجيني شعرت بها من سافيرا نحوها عند تعارفهما، تجلت الآن بشكل أقوى، كما انها بدت بالغة المهارة وهي تظهر مبلغ سيطرتها عليه... فكأنها بتصرفها هذا، أرادت ان تخبر أوجيني بأن ترفع يدها عنه. ربما أي امرأة اقل نضجاً وقوة من أوجيني كانت ستستجيب لتلك الإشارة، ولكن أوجيني إذا احست بهذا التحدي، سارعت إلى قبوله على الفور.

فقالت بصوت طبيعي رقيق وابتسامة صادقة: «كم هي لطيفة حسنة التفكير. ان خطيبتك رائعة الجمال، أليس كذلك؟ دوماً كنت أتمنى لو كان شعري أشقر، مثلها...»

وكان من الطبيعي لدى كلامها هذا، أن ينظر إلى شعرها هي البني الكثيف الرائع، وهذا بالضبط ما هدفت هي إليه بقولها ذاك.

وعادت تقول باهتمام مهذب: «هل ستتزوجان في وقت قريب؟ انني متلهفة لرؤية عرس هولندي.»

فأجاب وهو يسكب في فنجانه المزيد من الشاي: «ليس

ثمة موعد محدد. وانا واثق من انه ستسنح لك فرصة لذلك أثناء وجودك هنا.»

اخذ يحدثها عن المدينة قائلاً: «انني آسف لعدم تفرغي لكي أريك أنحاء المدينة. هل هنالك مكان تريدين رؤيته بشكل خاص؟»

«لقد فات الوقت بالنسبة للمتحف والآثار، لكن الممرضة كورسما اخبرتني ان المتاجر تتأخر في اغلاق ابوابها. فكرت في ان بإمكاني إلقاء نظرة عليها قبل أن اعود. وبعض زميلاتي اقترحن أن نتعشى في الخارج بعد الفراغ من العمل. ليس لدي سوى وقت قليل للتفرج في هذه الأنحاء.»

نطقت بهذه الكذبة البيضاء دون ان يرف لها رمش كانت تريده ان يعتقد انها ليست بحاجة إلى اهتمام أحد بالترفيه عنها. وكذبة بيضاء أو اثنتان لا ينتج عنهما اي ضرر. وتابعت تقول: «شكراً للشاي. كان لطفاً منك ان تمنحني شيئاً من وقتك.»

نظرت إلى الخارج من النافذة وقالت: «تلك هي الساحة هناك، أليس كذلك؟ إلى اليسار؟ هل لديك مانع إذا أنا خرجت الآن قبل ان تقفل المتاجر؟»

نادى النادل على الفور ليحضر له قائمة الحساب، وهو يوافقها، مسروراً، على انه مازال هنالك وقت للتفرج، وهو ينظر إليها بابتسامة سرعان ما كبحها. ورافقها في عبور الشارع، ثم تأكد من انها تسير في الإتجاه الصحيح، قبل ان يعود إلى المستشفى وقد غرق في تفكير عميق.

أمضت أوجيني بعض الوقت تتفرج على واجهات المتاجر وقد تكدر مزاجها، إلى ان دفعها التفكير في

العشاء إلى التفتيش عن مكان تتناول فيه الطعام، وكان هناك عدة مطاعم ومقاه، فاختارت واحداً منها كان يبدو شبه فارغ، ولكنها أولاً، اخذت تتفحص قائمة الطعام في الخارج لتتاكد من أنها تحمل معها المبلغ المطلوب. كان مطعماً يخدم فيه الزبون نفسه بنفسه. اخذت صينيتها ووقفت في الصف. كان هناك كميات كثيرة من مختلف انواع الأطعمة فاختارت ما تمكنت من معرفة نوعه بسهولة مع فنجان قهوة حملتها جميعاً إلى مائدة صغيرة في زاوية من المطعم. كان الطعام ممتازاً انهت عشاءها وشربت قهوتها، ثم نهضت تبغي الخروج، ولكن رجلاً طويل القامة كان جالساً قريباً منها، سالها: «انك انكليزية، أليس كذلك؟»

أجابت: «نعم.» ثم سارت تتجاوزه فوجدته خلفها. عندما وصلت إلى الرصيف، تقدم منها قائلاً: «لا تقلقي، لن الحق بك أي أذى، ولكنك اكثر جمالاً من ان تبقي وحدك. سأحضر لك سيارة أجرة أو ربما نستقل الباص.»

استدارت تنظر إليه، قائلة: «انك غاية في اللطف، انما لا ضرورة لذلك. فانا اشتغل في المستشفى وهو لا يبعد اكثر من عشر دقائق سيراً على الأقدام.»

«إذن فسأسير معك. هل انت ممرضة؟»

«نعم، وهذا غير ضروري في الحقيقة...»

«انني سآتي على كل حال. ليس عليك ان تتحدثي إلي. إن لي أخوات.»

«ألا يخرجن بمفردهن؟»

«بالطبع، ولكنهن لسن اجنبيات مثلك.»

ولم يقل شيئاً آخر، إنما عند مدخل المستشفى تمنى لها،

بكل أدب، ليلة سعيدة وهو ينصحها بألا تخرج وحدها قبل ان تعرف مسالك المدينة، ثم صافحها، فقالت له: «انني شاكرة لك جداً هذا.»

مر بهما الدكتور ريجنما تير ساليس في هذه الأثناء في سيارته، فرفع حاجبيه وهو يكظم شعوراً قوياً بالإنزعاج. ولكن أوجيني لم تره وهي تحيي الرجل للمرة الأخيرة ثم تدخل المستشفى.

تقابلا في الصباح التالي، في غرفة العمليات، وكان على الدكتور ريجنما تير ساليس ان يجري عملية في صمامات القلب. جاء في الوقت المحدد، ألقى عليها تحية الصباح وباشر عمله بهدوء. كان هناك بالطبع عدد من الأشخاص. وكان جهاز القلب والرئتين بحاجة إلى مهارة في توجيهه. ولكن أوجيني التي كانت مركزة اهتمامها على منضدة الأدوات الجراحية، بقيت هادئة. كانت العملية ناجحة، ونقل المريض بعيداً واعيد تنظيف وتنظيم غرفة العمليات، ووقف الدكتور ريجنما امام أوجيني وهي تخلع ثوب العمليات الفضفاض، وخاطبها قائلاً ببرود: «هل لي بكلمة معك، من فضلك؟» فتبعته إلى المكتب وهي تتساءل عما إذا كانت اخطأت بشيء. فحسب علمها، كل شيء كان كما ينبغي أن يكون. فهي لم تجعله ينتظر لحظة واحدة، وكانت تناوله الأدوات التي يريد استعمالها، بكل عناية.

فتح الباب فدخلت وجلست عند المكتب، كانت الغرفة صغيرة، فوقف مستنداً إلى الجدار ويداه في جيبيه، ثم قال متهكماً: «انك لم تضيعي وقتك مساء أمس لأنك سرعان ما وجدت مرافقاً. أهو شخص تعرفينه؟»

«انني لم أره من قبل في حياتي. لماذا تسأل يا سيدي؟»

«لأنني مندهش بأن تسمحي لنفسك بأن يلتقطك أي كان بهذه السهولة، يا أوجيني؟»

فاستقامت في جلستها وهي تكبح غضباً عنيفاً استولى عليها، ثم تقول: «هذه ملاحظة منك لا تغتفر، يا سيدي، وكذلك هي غير صحيحة. فليس من عادتي التقاط الرجال.»

«كلا، كلا بالطبع، كان تعبيري عما أريد قوله سيئاً جداً. انك امرأة رائعة الجمال يا أوجيني. وأنا واثق من انك في أمان تام في قريتك دارتمور، ولكنك الآن في بلاد أجنبية لا تعرفين لغتها، كما انك، واسمحي لي بأن اقوم هذا، بريئة.»

قالت بجفاء: «هذا هراء كلياً. انني في الخامسة والعشرين من عمري. حتى ولو كنت قروية المولد والنشأة إلا أنني عشت سنوات في لندن. ان بإمكاني العناية بنفسي. فإذا كنت تظنني بتلك الصفة، لا أدري لماذا عرضت عليّ هذه الوظيفة.»

قال بهدوء: «انك فتاة عقلانية وممرضة عمليات ممتازة، ولكن سافيرا كانت محقة تماماً عندما أوصتني بأن احذرك...»

ففتحت أوجيني فمها واغلقته ثانياً تكبح كلمات ازدحمت في فكرها. ولكنها ما لبثت أن قالت: «اتوسل اليك ان تخبر فتاتك ان تهتم بشؤونها الخاصة. انني واثقة من ان قصدها حسن وتريد ان تساعدني... فهي، كما اظن، اكبر مني بسنوات كثيرة وربما تعرف عن كيفية التقاط الرجال للمرأة اكثر مما اعرف...»

ثم سكتت، ولم يتحرك الدكتور ريجنما تير ساليس

ولكنها دفعت كرسيها إلى الجدار خلفها، ولو كان في امكانها اختراق الجدار هذا لتهرب منه، لفعلت. ذلك ان الغضب الهائل الذي ظهر في وجهه أرسل في نفسها قشعريرة باردة. لقد تمادت تماماً، كانت تعلم ذلك، ولكنه هو الذي استفزها ففقدت اعصابها. وحملت نفسها على النظر إليه قائلة: «أليس من الأفضل ان تذهب قبل ان تضربني؟»

جلست بعد خروجه فترة طويلة. لقد أساءت الأدب بشكل فظيع... لقد أهانت خطيبته سافيرا، وهو لن يسامحها أبداً، وربما سيعيدها إلى انكلترا.

دخلت زميلتها الممرضة الهولندية لاستلام العمل منها إذ كانت متفرغة بعد الظهر، وكانت قد تأخرت كثيراً عن وجبة الغداء. فسلمت المفاتيح، ثم سارت خلال المستشفى. كانت غرف العمليات مفصولة عن اقسام المستشفى بممر طويل قام في أوله مصاعد وفي آخره سلم. فسارت نحو السلم ثم أخذت تهبطه، وإذا بها تقابل، وجهاً لوجه، الدكتور ريجنما تير ساليس.

قال لها: «احضري معطفك وقابليني عند الباب.» وكان يبدو عليه السرور.

تفرست في وجهه، فقابل نظراتها بهدوء، ولم يكن ثمة فائدة من عدم استجابتها لطلبه، فهو سيطردها، وكلما كان ذلك اسرع، كان افضل، فقالت بهدوء: «هذا حسن جداً.» ثم مرت بجانبه متوجهة إلى غرفتها حيث استبدلت بثيابها تنورة وكنزة وسترة واقية للمطر، وذلك بظرف خمس دقائق وبعد ذلك بدقيقتين كانت عند مدخل المستشفى، حيث وجدته بانتظارها.

قال: «سنتمشى إلى حدائق بريزينتهوف، إذ أننا، بحاجة إلى التحدث معاً.»

لم يكن الطريق طويلاً، ولم ينطق احدهما بكلمة إلى ان اصبحا داخل الحدائق، فقال: «علينا ان نجد مقعداً نجلس عليه.»

كانت المناظر حولهما رائعة الجمال، وكانت قد سبق وصممت على زيارة هذا المكان الذي كان انشيء منذ مئتين وخمسين عاماً فكان ساراً للناظرين، وفكرت وهي تبتسم باكتئاب، في ان هذا المكان، مادامت ستطرد من عملها، لم يعد يختلف عن غيره.

كانت هنالك مقاعد قد اخفيت بمهارة في الأسيجة المحيطة بالحدائق لمن يريد الإنفراد، ولكن عندما اقترب من واحد منها، اسرعت تقول: «انني افضل المشي إذا لم يكن لديك مانع.» وكانت تهدف من وراء ذلك إلى ألا تضطر إلى النظر إليه.

كان هناك اشخاص قلائل. وفي منتصف الممر، وقف ليقول: «انني مدين لك بالإعتذار. لم يكن لدي الحق في ان أوجه اليك مثل ذلك الكلام. يجب ان تصدقني ذلك، ثم انني فقدت اعصابي...»

نظرت إليه بشكل مباشر وقالت: «لقد قلت انا عن خطيبتك سافيرا شيئاً فظيعاً لم أكن أعني منها كلمة، وأنا آسفة لذلك. لقد فقدت اعصابي انا أيضاً.»

مدت له يدها قائلة: «هل لنا ان نصفح وننسى؟ اننا منسجمان معاً في غرفة العمليات، أليس كذلك؟ ولا أدري لماذا لا نستطيع ان نكون مهذبين نحو بعضنا البعض حين نجتمع.»

واستطاعت، على نحو ما، ان توحي بانطباع بانها، مع كونها مستعدة لاعتبار مافات قد فات، فهي غير مهتمة بما حدث، ويبدو انها نجحت في ذلك، فقد اخذ بيدها قائلاً: «ان هذا سبيل معقول نخرج فيه من متاعبنا.» وابتسم فجأة وهو يضيف: «ايمكننا ان نبدد ما نشعر به من غل بشيء من القهوة والشطائر؟ لقد فات وقت الغداء ومازال وقت الشاي لم يحن بعد.»

«سيكون هذا حسناً، فالحديقة رائعة...»

أخذا يتمشيان بينما كان يحدثها عن تاريخ هذه الحديقة إلى ان وصلا إلى مقهى صغير في شارع جانبي حيث تناولا قهوة، وشطائر، تناولتها أوجيني بشهية فائقة ولم تمانع حين طلب إبريق قهوة آخر. وأخيراً، نظر في ساعته قائلاً: «ان لدي بعض المرضى عليّ ان اراهم الساعة الثالثة... سأسير معك عائداً إلى المستشفى واحضر سيارتي من هناك.»

فعادا سائرين بنشاط وقد عادا صديقين مرة أخرى بكل ما في هذه الكلمة من معنى. ولكن تحت صداقتها الهادئة هذه، كانت أوجيني تكتم في اعماقها كراهية قوية نحو سافيرا. من حسن الحظ انه كان من غير المحتمل ان تراها مرة أخرى.

افترقا في المستشفى، وكان يساور أوجيني شي من الزهد في زميل العمل ذاك الذي لا يريد ان يوسع مدى صداقته. وكان في قائمة العمليات عملية للدكتور ريجنما بعد ظهر اليوم التالي، وهكذا كانت أوجيني متفرغة من العمل عند الصباح توطئة للوقوف معه عند إجراء العملية.

وحياها هو حين دخوله بكل أدب، وتبادل بعض الملاحظات مع الحاضرين ومن ثم ابتدأ العمل. كانت على وشك الخروج بعد انتهاء عملها، عندما عاد الدكتور ريجنما ليخاطبها بقوله: «من الأفضل ان تأخذي عطلة نهار الغد. ذلك اننا سنسافر إلى جزيرة ماديرا في البرتغال، بعد غد لإجراء عملية تقويم خلل في البطين لقنصل هولندا هناك. جهزي لي كل ادواتي ومعداتي لأراها، من فضلك، وساعود هذا المساء. خذي معك ملابس كافية لعشرة ايام ولو انني آمل ان نتمكن من العودة بعد أسبوع. فلتكن الثياب صيفية، هذا إلى ملابس التمريض طبعاً.»

فسألته بهدوء: «هل تعلم الممرضة المسؤولة بذلك؟»

«نعم. أريدك عند الباب الساعة السابعة صباح بعد غد.» ثم أحنى رأسه باختصار وخرج. بينما قالت أوجيني للغرفة الفارغة: «كنت دوماً أتمنى زيارة إلى جزيرة ماديرا.» ثم اخذت تحضر الأدوات وتصفها لكي يتمكن من رؤيتها بنظرة واحدة، ويرى ان كان ينقصها شيء. في الوقت الذي انتهت فيه، كانت الممرضة الليلية قد وصلت حيث استلمت منها المفاتيح. وعندما حدثتها أوجيني عن سفرها الوشيك، قالت لها: «ستكونين بحاجة إلى بعض الأثواب القطنية.»

وفي غرفتها، أخذت أوجيني تضع قوائم بما عليها شراؤه، وتعد ما لديها من نقود، وهي تفكر في انها قد حصلت اخيراً على يوم عطلة لكي ترى ما ينقص خزانتها من ملابس.

استيقظت باكراً ثم خرجت إلى المتاجر حالما فتحت أبوابها، حيث اشترت تنورة قطنية زرقاء اللون وعدة

قمصان قطنية فضفاضة وثوبين قطنيين، وبلوز مخططة وثوباً مطبوعاً بالزهور بكمين قصيرين، وقميصاً قطنياً آخر بلونين بني وكريم ثم حذاء خفيفاً، لتعود بعد ذلك إلى غرفتها في المستشفى لحزم امتعتها. وكانت تمر بجانب المقهى الذي كان الدكتور ريجنما قد اخذها إليه لتناول الشاي، عندما رأت سافيرا جالسة إلى مائدة برفقة امرأة أخرى، فالقت نظرة على أوجيني لوحت لها بعدها بيدها في حركة عفوية قبل ان تحول اهتمامها بعد ذلك إلى مرافقتها، ولم تبادلها اوجيني التلويح هذا بل ابتسمت لها ببرود وحيرة وكأنها غير واثقة من شخصية سافيرا، ثم تابعت طريقها شاعرة بالسرور وهي تفكر في ان سافيرا لا بد أنها الآن منزعجة لأن اوجيني لم تعرفها على الفور.

وكانت في هذا على صواب. فقد اتصلت سافيرا بالدكتور ريجنما في ذلك المساء حيث أنه كان اخبرها بعدم استطاعته الخروج معها لتناول العشاء بسبب انشغاله الشديد، وذلك لتقول له: «لقد رأيت اليوم تلك الفتاة التي احضرتها من لندن لتشتغل عندك... لقد لوحت لها بيدي ولكنها ابتسمت وكأنها لم تتذكر من أكون...»

«ربما لم تتذكرك. وبعد فانتما لم تريا بعضكما إلا لحظات قليلة في السيارة.» وكان نصف مستمع إلى ما تقوله وذلك لانشغاله بتقليب أوراق المرضى التي بين يديه. وكانت هي تسأله: «لماذا لا نخرج إلى العشاء هذه الليلة؟ اعرف انك سبق وقلت انك مشغول، ولكن لا بد ان يكون لديك وقت لتأكل. انني اشعر بالضجر.»

«آه، نعم، كنت على وشك ان اتصل بك. انني مسافر إلى

جزيرة ماديرا في البرتغال غداً في الصباح الباكر، وسأبقى هناك لمدة أسبوع على الأقل.»

«هل ستأخذ تلك الفتاة معك؟»

«ان أوجيني هي ممرضة غرفة عملياتي، ياسافيرا، وهذا سبب وجودها هنا، ومن الطبيعي ان تكون بصحبتي.»

فقالت سافيرا بحدة: «مع كل ذلك الشعر؟ كما انها ستصبح سمينة بعد سنة أو اثنتين.»

فقال ببرود: «ان هذا لا يؤثر على مهارتها في غرفة العمليات. ها انك تفكرين بشكل صبياني يا سافيرا.»

فألقت بسماعة الهاتف من يدها بعنف بينما عاد هو إلى عمله.

استيقظت أوجيني باكراً، فارتدت ثيابها وجهزت نفسها. صنعت لنفسها الشاي والخبز المحمص، ثم نزلت حاملة حقيبتها إلى المدخل حيث وجدت الدكتور ريجنما واقفاً في انتظارها حيته برزانة ثم صعدت إلى السيارة. كان قد نظر إليها بطريقة غريبة.. متفحصة... أتراه يريد ان يتأكد مما إذا كانت ملابسها لائقة؟ ولم تشأ ان تلقي عليه اسئلة. ولكنه أرضى فضولها على الفور حين قال: «ان الطائرة ستطير بنا إلى سيفول حيث نأخذ طائرة أخرى من هناك.» ولم يتكلم مرة أخرى إلى أن وصلا إلى المطار حيث استقلا طائرة انتقلا منها إلى أخرى في سيفول، ولم تكن هناك ية أجراءات جمركية ولا ازدحام كما رأت أوجيني. وعندما أصبحا في الطائرة، سألته: «هل تسافر بهذا الشكل على الدوام؟»

أجاب: «كلا، فهذه الطائرة استأجرتها الحكومة، فهي

للطوارىء.» وفتح حقيبته وهو يضيف: «لقد احضرت لك كتيب إرشادات عن ماديرا فيما لو لم تسبق لك معرفتها.»

أخذتها منه شاكرة، فالرحلة ستستغرق عدة ساعات. ذلك ا ن ماديرا تبعد عن هولندا ألفاً وخمسمائة متراً. وفتحت الكتيب واخذت تقرأ، شاعرة بالسرور إذ تجد شيئاً تفعله حيث ان الدكتور ريجنما كان مستغرقاً في قراء مجموعة من الأوراق بين يديه

قدمت لهما القهوة والبسكويت على الفور، وجعلها منظر السحب تهوم في مكانها، لتنتبه إلى تربيت خفيف على كتفها.

كان الدكتور ريجنما يبتسم لها قائلاً: «لقد اقتربنا من الهبوط، وسترين فانتشال حال اختراقنا لهذه السحب.»

بعد ذلك بلحظة، رأت الجزيرة اسفل، كانت المدينة محشورة بين رأسين بحريين، وكانت المنازل ماتزال تبدو بعيدة أسفل، متصاعدة على جوانب الجبال خلف المدينة. وأثناء تفرجها على كل ذلك، كانت السحب قد ابتعدت لتتالق الشمس على البيوت البيضاء وعلى مياه البحر. وسحرها هذا المنظر.

استقبلهما في المطار شاب رزين المظهر يقود سيارة فخمة، رحب بقدومها إلى الجزيرة، ثم بعد كلمة اعتذار، تحول يتحدث بالهولندية إلى الدكتور ريجنما الذي صعد إلى السيارة بجانبه بعد ان أجلسها في المقعد الخلفي، وهذا ما امكنها من النظر حولها أثناء دخول السيارة إلى المدينة متجهاً إلى قلبها، ولكن قبيل وصولهم مروا بحديقة عامة ومقهى مواجهين البحر، ليتحول الشاب بالسيارة إلى

ناحية مماثلة في الجمال، ليتوقف عند ذاك امام المستشفى.

خرج الدكتور ريجنما من السيارة، ثم فتح لها الباب وهو يقول: «انني ذاهب لإلقاء نظرة على مريضنا... وكذلك انت بالطبع، وربما يمكنك اثناء وجودي معه، ان تقومي بإلقاء نظرة سريعة على غرفة العمليات. ان اقامتنا ستكون في القنصلية، وأنا أرى ان نعود إلى هنا بعد الغداء حيث تطمئنين انت إلى ان غرفة العمليات حسب ذوقك. ان ممرضات المستشفى ودودات ومتعاونات.» ونظر إليها بإمعان وهو يتابع: «ألست متعبة؟»

أجابت: «ليس كثيراً.» وكانت تتوق إلى إبريق شاي ومكان ترفع فيه قدميها.

دخلا المستشفى مع الشاب حيث اتجهت بها امرأة مسنة سوداء الشعر والعينين إلى غرفة العمليات التي كانت اصغر مساحة من تلك التي في مستشفى غرونينجن ولكنها حسنة التجهيز، وكان جهاز القلب والرئتين هناك. كذلك تعرفت إلى الموظف التقني المختص وسرها معرفته الجيدة باللغة الانكليزية، وفي الواقع ان كل من تعرفت إليهن من الممرضات كن يتكلمن الانكليزية، ماجعل كل مخاوفها من متاعب عدم فهم اللغة، تتلاشى. وهكذا أمضت فترة قصيرة حاولت فيها ان تألف المكان. كانت تدس أنفها الجميل في خزانة الأدوات الجراحية عندما جاء الدكتور رينجنما ليقف معها وهو يقول: «هل انت راضية؟ حسناً، تعالي وتعرفي إلى مريضنا.»

لم يكن الرجل الذي كان في السرير قد وصل إلى منتصف العمر بعد. ورغم مظاهر المرض عليه، كان وسيماً، أو هذا

ما سيكون عليه عندما يستعيد صحته. ورغم حالته ابتسم لأوجيني وهمس شيئاً وهو يأخذ يدها بيده وهو يقول شيئاً بالهولندية ناظراً إلى الدكتور ريجنما ماجعل هذا يضحك ويجيب باختصار.

وعندما خرجا إلى السيارة، سألته أوجيني: «ما الذي قاله؟»

أجاب بصوت جاف: «قال انك رائعة الجمال.» وجعلتها النظرة التي رمقها بها تحمر خجلاً. فقال: «لم أكن أظن أن هناك نساء مازال يعتريهن هذا.»

«يعتريهن ماذا؟»

«الخجل.»

فلم تنظر إليه، وصعدت السيارة وبقيت تنظر من النافذة طوال الطريق إلى القنصلية.

رحب بهما نائب القنصل، ثم قدمها إلى زوجة القنصل التي كانت طويلة القامة ممتلئة نوعاً ما، ذات عينين زرقاوين براقتين وابتسامة ساحرة.

كانت معرفتها باللغة الانكليزية فوق المتوسط، وقد رحبت بها بحرارة قائلة وهي ترافقها صاعدة معها السلم: «انني شديدة القلق، ان زوجي مريض جداً ولكنك تعرفين هذا طبعاً، وتعزيتي هي في وجود ايديريك لأن شفاء زوجي سيكون على يديه.» وتوقفت في منتصف السلم وهي تتابع: «ما اصعب ان يمرض شخص تحبينه.»

أخذت أوجيني تتمتم بكلمات الترفيه، فقد كانت السيدة فان تيغ امرأة يألفها المرء بسرعة. كانت غرفتها جميلة، ونافذتها تطل على حديقة واسعة من خلفها البحر. وقالت

لها المرأة: «لقد وضعتك في الخلف من المنزل، يا آنسة سبنسر، فهي اكثر هدوءاً...»

«اشكرك. انما هل لك في ان تدعيني باسمي أوجيني، كما يفعل الجميع؟»

«انه اسم جميل، كما انك فتاة باهرة الجمال، ولا بد انك ماهرة جداً في عملك وإلا لما قبل ايديريك ان تعملي عنده أبداً.»

فكان جواب أوجيني ان ابتسمت بينما تركتها مضيفتها بعد أن اخبرتها بأن الغداء بانتظارها حالما تنزل إلى الطابق الأسفل، كانت حقيبتها قد سبق ووضعت في غرفتها، إنما لم يكن ثمة وقت لتغيير ملابسها. فاصلحت من شعرها وزينتها، ثم عادت إلى الطابق الأسفل حيث وجدت الدكتور ريجنما تير ساليس واقفاً مع السيدة فان تيغ عند الباب الذي يقود إلى الحديقة.

تناولوا الغداء في الحديقة ليعودا بعده مباشرة إلى المستشفى. كانت العملية ستجرى في الصباح الباكر، في الساعة السابعة والنصف، ولهذا أخذت تعد كل شيء حسب استطاعتها. بعدها عادت إلى غرفة الإنتظار في الطابق الأرضي بعد أن طافت بها انحاء المستشفى ممرضة ودود، وكانت تتوقع ان يكون الدكتور ريجنما مازال هناك.

وكان هناك فعلاً، فقد كان وصل لتوه بصحبة طبيب البنج وجراحين. حدقوا فيها بإعجاب سافر، ثم قال اصغرهم سناً: «عندما تفرغين من العمل، يا آنسة سبنسر، سيكون من دواعي سروري أن أريك بعض معالم ماديرا.»

فقالت بحماس لكثر مما تحس به: «ساكون في غاية

السرور.» ولكن الدكتور ريجنما اخذ يحدق فيها بعنف وعلى شفتيه ابتسامة تهكم.

وفكرت هي في ان ليس ثمة أمل في أن يريها هو أي شيء لا يتعلق بعملية الغد.

عاد إلى القنصلية على الفور ثم تناولا فنجاناً من الشاي قبل ان تصعد إلى غرفتها لتستحم وتغير ملابسها لترتدي ثوباً قطنياً، فقد كان عليها ان تكون في المستشفى عند الساعة السادسة والنصف كما اخبروها أثناء العشاء، وهكذا صعدت إلى غرفتها حالما أنهوا تناول القهوة.

* * *

كان الصباح رائع الجمال وهما يتجهان إلى المستشفى خلال الشوارع الضيقة. كانا قد تناولا الإفطار بسرعة دون إضاعة وقت، وعدا عن تبادل بعض الملاحظات عن عمل هذا الصباح، لم يكن لدى الدكتور ريجنما الكثير ليقوله، وعند وصولهما إلى المستشفى، انفصلت عنه متوجهة رأساً إلى غرفة العمليات لكي تطمئن على أدواته وتتفحص المعدات والنور ووضع المناضد والعربات والأجهزة، وعندما اطمأنت إلى كل هذا، تحدثت قليلاً إلى الممرضات الثلاث اللاتي سيساعدنها، ثم توجهت لارتداء ملابس التعقيم.

كانت واقفة تحدق في المناضد وقد بدا عليها الهدوء البالغ، عندما ادخل المريض وفي اعقابه الدكتور ريجنما مع مساعديه.

بعد ذلك، لم يعد للوقت قيمة. ليقف في النهاية، بنفس الهدوء الذي كان عليه عندما قام بأول شرط في جلد

المريض. كانت مرت لحظة بعد الانتهاء من العملية حين قرر الصاق الخلل بلاصق بلاستيكي حين لم تستطع الخياطة ان تمسكه، ولكن الأمر مر بنجاح. تبادل عدة كلمات مع طبيب البنج، وكرر شكره لأوجيني ثم غادر غرفة العمليات.

كان هناك الكثير ليعمل بالنسبة إلى إعادة تنظيم غرفة العمليات، ولكن الممرضات الأخريات أخذنها إلى غرفة صغيرة بعيدة عن غرفة العمليات لتناول القهوة، حيث أخذن جميعاً يتحدثن في وقت واحد عن مدى نجاح العملية.

ولم تشأ متابعة الحديث عن ذلك، فسألتهن عما يستحق ان تتفرج عليه أثناء وجودها في جزيرة ماديرا.

ورغم احتجاجهن، عادت إلى غرفة العمليات لتساعد في إعادة تنظيمها. لقد كان هناك تنظيف وتعقيم أدوات الدكتور ريجنما، وهكذا انهت كل شيء وأعادت حفظها جاهزة لعملية تالية. وقد استغرق كل هذا وقتاً. ومع ان بقية الممرضات ذهبن لتناول غداء متأخر، إلا أنها شاءت أن تبقى وتنجز مهمتها نهائياً. احضرت الحقيبة التي كانت تحتوي على الأدوات الجراحية فاعادتها في أحسن تنظيم، ثم اغلقتها واقفلتها، لتقف بعد ذلك لحظة وقد استبد بها فجأة التعب والجوع.

كان الدكتور ريجنما داخلاً غرفة العمليات بهدوء عندما رآها، فوقف ينظر إليها، كانت مديرة ظهرها إليه ومازالت بلباس العمليات الأخضر وقد انزاح غطاء رأسها إلى الخلف فبدا شعرها غير المنظم، ماجعل منظرها بعيداً عن الجمال.

«إذا كنت قد انتهيت، فسنخرج معاً لتناول الطعام. انني اتضور جوعاً واظنك أيضاً كذلك.»

فاستدارت حالما سمعته: «آه، مرحباً. حسناً، أظن من المفترض ان اتناول الغداء هنا. شكراً على كل حال.» وجذبت غطاء شعرها فاسدل شعرها، «هل سيشفى المريض؟»

«يمكنني أن أقول، نعم. إنما الوقت مازال باكراً على التأكد من ذلك. والآن، اتركي كل هذا وتعالي معي.» وابتسم فجأة. «لقد كان عملك ممتازاً، يا أوجيني، فشكراً لك. سانتظرك عند الباب.»

ارتدت تنورتها وقميصاً قطنياً، ووضعت قدميها في حذاء خفيف، وكومت شعرها على قمة رأسها، ثم نزلت متجهة إلى مدخل المستشفى. وكان هو هناك يتحدث إلى الجراحين الذين ساعداه في العملية، فوقفوا جميعاً يتبادلون الحديث عدة دقائق قبل ان يقول: «ساعود بعد ساعتين.» ثم أمسك بذراعها وخرجا إلى الشارع.

كان الجو حاراً والشوارع هادئة. فقال لها: «انني اعرف اين يمكننا ان نجد طعاماً جيداً.» وابتعد بها عن الشوارع الرئيسية، والبحر، ثم استدار داخلاً إلى شارع ضيق يحتوي على متاجر صغيرة ومقاهي. فوقف امام واحد منها مشيراً إليها بالدخول من باب مفتوح. كانت إنارة المكان في الداخل خفيفة بينما توزعت في أرجائه بعض الموائد والكراسي نصفها كان مشغولاً.

أجلسها بينما تقدم منهما النادل على الفور. فبادره الدكتور ريجنما بقوله: «نريد شيئاً بارداً نشربه.» ثم سأل

أوجيني: «هل تريدين ان تجربي ماراكوجا؟ انه عصير فاكهة ممزوج بماء الورد.» وعندما أومأت بالإيجاب، تحول يتحدث إلى النادل. فسألته: «هل تتحدث البرتغالي؟»

فأجاب: «كلمات قليلة فقط استطيع بها أن اطلب الطعام وأسأل عن الطريق.»

نظرت إلى قائمة الطعام وهي تتساءل عن معنى هذا كله، لو كانت وحدها لما تجرأت أبداً على أن تاكل شيئاً...

قال هو دون اهتمام وكأنه قرأ أفكارها: «ان لدى المطاعم والمقاهي الكبيرة قوائم باللغة الانكليزية، والندل يتحدثون بعض الانكليزية، حيث وحدك لن تشعري بالضيق.»

فتساءلت عما إذا كانت تلك إشارة رقيقة منه إلى أن لا تنتظر مرافقته لها على الدوام.

قال: «هل نطلب روستو وسمك وسلطة؟» كان الطعام لذيذاً، وتناولا الطعام ببطء وهما يتحدثان عن عملية الصباح. وخطر ببال أوجيني ان هذا الحديث لو سمعته سافيرا لما شعرت إزاءه بالغيرة. واختلست النظر إليه وهما يتناولان الطعام، ثم اندفعت تقول فجأة: «اظن ان خطيبتك سافيرا كانت ستحب الحضور معك.»

فنظر إليها ببرود، قائلاً: «انني لا اخلط بين العمل والحياة الشخصية». وكان صوته بمثل برود نظراته.

عادت إلى القنصلية مشياً على الأقدام بعد ان افترقا عند المستشفى... لا بد إذن أنه يعتبر هذا بمثابة غداء عمل...

أمضت معظم عصر ذلك اليوم مع السيدة فان تيغ حيث أخذت تطمئنها قدر امكانها. «انني واثقة من ان بإمكانك

رؤية زوجك قريباً جداً، ولكنه بحاجة إلى الراحة مدة طويلة، فلا تبدي التأثر أمامه. إنه في خيمة الأوكسجين وهناك جهاز تخطيط القلب، وهذا كله يبدو مخيفاً لمن يراه، ولكن كل هذا سيرفع في أقرب وقت ممكن. وهناك ممرضات ماهرات تماماً حوله.»

وعندما تصاعد رنين الهاتف، استمعت السيدة إليه لحظة، ثم ناولته إلى أوجيني قائلة: «انه لك، ارجو ألا يكون هناك خبر سيء؟»

«أريدك هنا، أوجيني، وذلك لهذا المساء وربما الليل أيضاً. ان كل شيء هو سائر بشكل حسن. ولكن الممرضة المسؤولة يجب ان تنال وقتاً للراحة. أحضري معك زوجة المريض السيدة فان تيغ. إذ يمكنها ان تزوره لمدة خمس دقائق.»

وضعت أوجيني السماعة وهي تقول لها: «يمكنك القيام بالزيارة الآن. انني سأذهب معك لأجلس في مكان الممرضة المسؤولة.»

فقالت السيدة: «ساستدعي السيارة.» ثم قرعت الجرس بينما اسرعت أوجيني إلى غرفتها لتبدل ملابسها. وبعد ذلك بعشر دقائق، كانتا في طريقهما إلى المستشفى.

قابلهما الدكتور ريجنما بقوله: «ان حالة زوجك تتقدم بشكل رائع، فلا تقلقي لمنظره الذي سترينه عليه. يمكنك أن تمكثي بجانبه خمس دقائق فقط. انه غير واع تماماً، ولكنه سيعلم انك موجودة عنده.»

كان يتكلم بمنتهى اللطف والرقة، ولكنه عندما استدار إلى أوجيني، كان صوته جاداً بارداً: «شكراً لقدومك، يا

أوجيني. انني سأراجع وإياك ملف المريض قبل أن اذهب. وستكون معك ممرضة ولكنها ليست ذات خبرة.»

كان قسم العناية الفائقة صغير المساحة، ولكنه جيد التجهيز، وراجعت أوجيني أوراق المريض مع الممرضتين اللتين انتهى عملهما لهذا اليوم، كما ابلغت زوجة المريض بوجوب الخروج من الغرفة، ومن ثم أخذت تستمع باهتمام إلى تعليمات الدكتور ريجنما تير ساليس، ثم سألها: «هل ستكونين على مايرام حتى الساعة السادسة والنصف من صباح الغد؟» وعندما أومأت بالإيجاب قال: «سأحضر انا فيما بعد، ولا تترددي في الاتصال بي إذا أردتني بشيء. ان الدكتور بورج هو المسؤول الليلي، وسيتردد على المكان طول الوقت.»

ربما لم تكن الممرضة التي ستمكث الليل معها، ذات خبرة، ولكنها كانت سريعة الإدراك والإداء وتتكلم الانكليزية بطلاقة، وهكذا أمضتا معاً ليلة حافلة كان يؤخذ فيها النبض كل نصف ساعة وكذلك التنفس والضغط وتخطيط القلب. فكانتا تروحان وتجيئان بصمت، في الثوب الأبيض الفضفاض، غير مبالين بمرور الوقت وقد حضر الدكتور بورج عدة مرات. وقبل ان تحين الساعة الثانية صباحاً، جاء الدكتور ريجنما هو أيضاً، حيث ابدى رضاه عن الحالة، ثم غادر المكان مرة أخرى.

ثم عاد مرة أخرى في الساعة السادسة وقد بدا في مظهر الرجل الذي أمضى الليل نائماً بكل راحة متناولاً بعده فطوراً دسماً، وذلك بالعكس من أوجيني التي كانت متعبة للغاية وتتضور جوعاً، ذلك ان تناولها أكواب القهوة بسرعة،

وقضم لقيمات من الشطائر أثناء الليل، لم يكن ليرضيها، فحيته متذمرة ولكنها لم تلبث ان استعادت الجد في صوتها وهي تتلو عليه تفاصيل تقدم المريض بكل دقة.

«هذا حسن. والآن إذهبي يا أوجيني ونامي وكلي... ان كل شيء جاهز لأجلك في القنصلية. انني سأمضي النهار هنا، إنما تعالي للعمل الساعة العاشرة ليلاً، من فضلك.»

ووضع على كتفها يده الضخمة وهو يقول: «انك يدي اليمنى. يومان آخران نستطيع بعدها أن نرتاح.»

كانت من الإرهاق بحيث ان كل ما كانت تريد تقوم به، هو ان تضع رأسها على كتفه وتبكي، ولكن قالت باختصار: «حسناً جداً يا سيدي.»

الفصل الخامس

كانت أوجيني قد استعادت قواها تماماً بعد أن انتهت من تناول ذلك الإفطار الدسم الذي قدم لها، واغتسلت ثم ذهبت إلى فراشها. لقد كان التعب هو الذي جعلها تشعر بمثل تلك الكآبة. ولكنها الآن، وهي نصف نائمة، تتذكر ما سبق وقاله لها الدكتور ريجنما وهو أنها يده اليمنى. لم يكن هذا وصفاً شاعرياً، ولكنه أنعش ثقتها بنفسها التي كانت على شفا الانهيار ربما سيصبح الآن أقل تعالياً...

نامت حتى بداية المساء، ثم نهضت واغتسلت، ومن ثم هبطت إلى الطابق الأسفل حيث وجدت السيدة فان تيغ في غرفة الجلوس.

قالت لها السيدة على الفور: «فنجان شاي أولاً، ثم الجلوس قليلاً في الحديقة للهواء النقي قبل ان تتناولي عشاءك. ان السيارة ستأخذك إلى المستشفى وهكذا لديك الوقت الكافي للقيام بكل هذا.»

«انك بالغة اللطف يا سيدتي. هل قمت هذا النهار بزيارة السيد فان تيغ؟»

«نعم. وحالته في تحسن. لقد بقي ايديريك معه طوال النهار، وقال لي انه سيجتاز مرحلة الخطر بعد يوم واحد.»

واغرورقت عيناها الزرقاوان بالدموع وهي تقول: «لشد ما أنا سعيدة...» ومسحت عينيها وهي تتابع: «هاك الشاي

وبعد ذلك نخرج إلى الحديقة. لقد اخبرني ايديريك ان عليك ان تستنشقي هواء نقياً، وانك قوية ولكن عليك ان تستمري كذلك لعدة أيام أخرى.»

لم تستطع مهما بلغ منها الخيال، ان تسمي ذلك مديحاً، وبقيت صامتة. وبعد ان انهت فنجانها الثاني وصل بها التفكير إلى أنه من الواضح ان الدكتور ريجنما يرى ان كونها فتاة كبيرة الجسم وعاقلة، فهو يتوقع منها ان تعمل طوال الساعات. ولم تنتبه إلى واقع انه هو أيضاً يعمل طوال الساعات، وحيث أنها تملك المهارات المطلوبة في غرفة العناية الفائقة كما في غرفة العمليات، فالمنتظر منه أن يستغل ذلك فيها.

كانت الحديقة واسعة تموج بألوان مختلف أنواع الزهور، وهكذا سارتا في انحائها فترة عادا بعدها إلى داخل المنزل لتتناولا العشاء الذي كان بانتظارهما.

واستمتعت أوجيني بحساء الطماطم والبصل وهو نوع تختص به جزيرة ماديرا كما اخبرتها مضيفتها. وكذلك اللحم البقري المشوي. وإذ كان المساء دافئاً، تناولتا القهوة على الشرفة تتأملان الحديقة، قبل أن تستقل سيارة القنصلية متوجهة إلى المستشفى.

كانت قد سبق وارتدت ملابس التمريض، فارتدت فوقه الثوب الفضفاض، ثم اتجهت إلى الردهة الملحقة بحجرة المريض. كان الدكتور ريجنما جالساً إلى منضدة يكتب عليها عندما دخلت، فهب واقفاً يحييها بمودة وهو يسألها عما إذا كانت قد نامت جيداً.

فأجابت: «آه، نعم. وكذلك أكلت كالحصان.» وألقت عليه

نظرة في ضوء المصباح فرأت التعب في عينيه، «لا بد أن اليوم كان شاقاً...»

«كل شيء يدعو للرضا، سأخرجه من خيمة الأوكسجين غداً إذا استمرت الأمور حسنة، أريد كل الملاحظات المعتادة من فضلك. انني سأنام هنا مرة أخرى، وسيكون الدكتور دي كاستلو تحت الطلب. والآن سنلقي معاً نظرة على المريض...»

كان التحسن يبدو على المريض بجلاء، كان مايزال مرهقاً ومريضاً جداً، ولكنه استطاع أن يغمز بعينه لأوجيني قبل ان يعود إلى إغفاءته، واستمعت هي بعناية إلى إرشادات الدكتور ريجنما، ثم حيته بتحية المساء قبل ان تجلس إلى عملها الليلي، كان لديها هذه الليلة ممرضة مساعدة مختلفة، وكانت فتاة وادعة صغيرة الجسم، سريعة وواعية، فكانت تقوم بكل الأمور البسيطة العادية ما يدع مجالاً لأوجيني لكي تركز اهتمامها على الواجبات الهامة من ملاحظة المريض كل نصف ساعة. لم تشعر بنفس التعب الذي شعرت به الليلة الماضية، ومع انها لم تترك المريض اكثر من عدة دقائق كل مرة، إلا أن الليل مر بسرعة، وقد جاء الدكتور دي كاستلو عدة مرات، وحوالي منتصف الليل جاء الدكتور ريجنما للاطمئنان على المريض لآخر مرة قبل أن يأوي إلى فراشه. ليعود مرة أخرى في السادسة صباحاً، مستعداً لقراءة تقرير الليل والاطلاع على أوراق الملاحظات.

«انني أريدك هنا الليلة القادمة أيضاً، يا أوجيني. وهذه آخر مرة إذا استمرت حالته في التحسن من دون خيمة

الأوكسجين، وبعد ذلك يمكنك ان تقومي بعملك في أي وقت كان.» وابتسم لها: «اظن اننا بذلك، سيكون بإمكاننا العودة خلال أربعة أو خمسة أيام.»

كان جوابها: «نعم يا سيدي.» هو النموذج للتعامل المطلوب مع جراح استشاري.

استيقظت عصر ذلك اليوم مبكراً، ثم خرجت إلى المدينة بعد أن تناولت الشاي، وكانت السيدة فان تيغ في المستشفى وقد تركت خبراً مفاده أنها ستعود بعد ساعة أو نحو ذلك وكان الحارس عند الباب قد اعارها خريطة للمدينة، وهكذا سارت بسرعة إلى الشارع الرئيسي، ثم استدارت داخلة إلى شارع عريض مشجر، مجتازة قصر الحاكم، ثم إلى ناحية البحر، حيث كان هناك عدد كبير من الناس. لم تكن تريد أن تمكث معهم، ولكن بإمكانها أن تأتي في يوم آخر حين يكون لديها الوقت لذلك. وصلت إلى شارع افانيدو دي مار حيث سارت فيه فترة، كان الكورنيش ذا مناظر رائعة. وإذا حصلت لها فرصة قبل ترك هذا البلد لأمكنها ان ترى اكثر من ذلك فقد كان يمر من هناك كل أرقام الباصات وما عليها إلا أن تسأل...

عادت على الفور لتجد ان السيدة فان تيغ قد عادت من المستشفى، لقد أمضى زوجها يوماً رائعاً كما قالت لأوجيني. فقد ابعدوا عنه خيمة الأوكسجين، كما انه تحدث معها. وهتفت: «عزيزك ايديريك. يا له من رجل عظيم. كيف بإمكاننا أن نفيه حقه من الشكر.»

فاخذت أوجيني تتمتم برقة متمنية لو أنه حقاً عزيزها ايديريك.

وسرعان ما كانت تصرفاته العملية نحوها، عندما ذهبت لاستلام العمل، تكذب مثل هذه الأمنية، كان مسروراً، كان ذلك واضحاً عليه، ولكنه كان أيضاً حذراً. استمعت إلى إرشاداته صامتة، وعندما قال لها إنه سينام في المستشفى، لم تزد على أن قالت: «حسناً جداً يا سيدي.» كما أخبرها ان دكتور دي كاستلو سيكون تحت الطلب مرة أخرى، وكذلك الممرضة التي كانت ساعدتها في أول ليلة.

كل شيء سار كما يجب، وسلمت اوجيني العمل عند الصباح لممرضة قادمة من لشبونة، ثم سلمت تقريرها إلى الدكتور ريجنما ومن ثم ذهبت لتناول الإفطار والنوم. وكان قد رافقها في السير حتى مدخل المستشفى، متحدثاً عن العلاج اللاحق لمريضه، عندما انضم اليهما الدكتور بورج، أرادت ان تتركهما، سألها هذا ان كانت تقبل تناول العشاء معه هذا المساء، قائلاً: «ان بإمكاني ان اريك شيئاً في فانتشال فإذا لم تكوني متعبة جداً، فستكونين في العمل غداً نهاراً.»

فقال الدكتور ريجنما بهدوء: «اعتقد ان أوجيني ستأتي للعمل غداً بعد الظهر لكي تطلق سراح الممرضة الجديدة.»

فابتسمت للدكتور بورج: «إذن، في هذه الحالة سيسرني جداً أن ثمة أشياء كثيرة يجب ان أراها.» ووعدته ان تكون جاهزة في السابعة مساء، ثم ألقت التحية على الرجلين لتتوجه من ثم إلى القنصلية، وعلى مائدة الإفطار، اخبرت السيدة فان تيغ عن هذه الدعوة التي تلقتها.

«سيكون هذا أمراً حسناً الآن. فانت هنا لفترة قصيرة جداً. لقد اخبرني ايديريك بانه يأمل في العودة إلى هولندا

بعد يومين، أو ثلاثة على الأكثر. فيجب أن تري من هذه الجزيرة قدر ما يمكنك قبل رحيلك.»

رقدت أوجيني أثناء النهار الحار الجو، ثم ارتدت احد اثوابها القطنية عندما استيقظت، وزينت وجهها وسرحت شعرها بشكل جميل، ثم نزلت لتكون في انتظار الدكتور بورج، ولكنها وجدته هناك يتحدث إلى السيدة فان تيغ وسرعان ما خرج بها دون إضاعة الوقت.

قال لها: «العشاء أولاً.» ثم سار بها إلى مطعم كارافيلا قرب البحر. وكان مطعماً معروفاً يكاد يكون مزدحماً، ولكنه كان قد سبق وحجز مائدة قرب نافذة تشرف على منظر رائع للبحر والميناء.

لاكتشفت انه مرافق سار مليء بالمعلومات عن الجزيرة، ويجيب على اسئلتها بكل سرور. كما كان الطعام لذيذاً.

وفي الوقت الذي فرغا فيه من تناول الطعام، كان الظلام قد انتشر ولكن كان مايزال هناك متاجر مفتوحة كما كانت الشوارع مضاءة جيداً، فسارا في الأنحاء فترة، ثم أشار إلى الشوارع الرئيسية وإلى أحسن المتاجر والمقاهي التي بإمكانها ان تذهب إليها وحدها، إذا شاءت.

وفيما بعد، حدثت نفسها وهي تتهيأ للنوم، بانها كانت ليلة ممتعة حقاً، لقد كان الدكتور بورج رجلاً بالغ اللطف، ولكنها كانت تمنت لو كان ايديرك... يجب ان تتوقف عن التفكير به بصفته ايديريك.

وكانت دهشتها كبيرة في الصباح التالي عندما جاء ذلك الشاب الجاد الذي كان قد استقبلهما في المطار، جاء إلى القنصلية ليدعوها إلى تناول الغداء معه هذا النهار.

فقالت أوجيني وهي تكتم دهشتها: «حسناً، كان هذا سيسرني جداً، ولكنني سأستلم العمل الساعة الواحدة بعد الظهر.»

فقال بجد دون أثر لابتسامة: «انها العاشرة والنصف الآن. انني سأريك المتحف ثم الحديقة العامة، ثم نتناول القهوة في فندق ريدز. ولن ادعك تتأخرين عن موعد عملك.»

فقالت، إذ كانت متشوقة إلى رؤية ما يمكنها رؤيته من الجزيرة أثناء وجودها فيها، قالت: «في هذه الحالة، يسرني جداً أن اقبل دعوتك.»

قال: «سنذهب سيراً على الأقدام لكي يكون في امكانك ان تري ما تستطيعين رؤيته.»

وهكذا احضرت قبعة القش التي كانت اشترتها ووضعتها على شعرها القاتم، وقد بدت جميلة خفيفة في ثوبها القطني، ثم انطلقت معه لتتفرج على المدينة، كان هناك الكثير مما يمكنها لتتفرج على المدينة، كان هناك الكثير مما يمكنها رؤيته، ولكن مرافقها جان فان دال لم يكن ينوي ان يتركها تضيع الوقت في التسكع في سوق الأزهار، أو صعود الشوارع الضيقة التي تتجه من المدينة إلى التلال خلفها. وبدلاً من ذلك اخذها إلى المتحف، وإلى قصر الحاكم. نظر جان في ساعته قائلاً برزانة ان الوقت قد حان للعودة إلى القنصلية إذ انها ستكون بحاجة إلى تناول الغداء قبل أن تذهب إلى المستشفى ثم شكرته بكل رقة لقضائه الصباح معها، وعندما اقترح أن يقوما بزيارة إلى المتحف الثالث، قالت بلهجة غامضة أن ليس لديها فكرة عن أوقات

فراغها من العمل، قائلة: «ان علينا ان نرحل قريباً جداً، الآن.» وابتسمت له بمودة وهي تتابع: «كان لطفاً منك ان تريني بعض معالم المدينة.»

ولكنها شعرت بالحيرة عندما رد عليها قائلاً بوقارتام: «انني اعتبرت ذلك واجباً عليّ.»

وعندما ذهبت للعمل، لم تر الدكتور ريجنما إلا للحظة قصيرة جداً، وفي اليوم التالي إذ ذهبت للعمل عند الصباح، لم تره مطلقاً إلا حين خرجت بعد انتهاء عملها بعد الظهر. كان يتحدث إلى الدكتور بورج، وعندما مرت بهما متمتمة مساء الخير، مد ذرعه يوقفها عن السير وهو يقول: «آه، أنت من كنا نريد رؤيته. لقد انتهى عملنا هنا، يا أوجيني. وآمل أن نغادر بعد غد، فقد اصبح كل شيء على مايرام. فاعتبري نفسك دون عمل حتى ذلك الحين، وهذا سيعطيك فرصة تطوفين فيها على المتاجر.»

فشكرته بصوت جاف، وقد ابتدأت تفكر في ما ستفعله، فلا بد لها من الطواف على المتاجر لشراء هدايا، ثم العودة إلى المستشفى لتوديع معارفها من الممرضات، وقبل كل شيء، عليها ان تستقل الباص لترى شيئاً من معالم الجزيرة.

قال الدكتور ريجنما ببالغ الرقة: «إذا لم تكوني متعبة، فسنترك القنصلية الساعة الثامنة، ثم نذهب للتجوال في أنحاء الجزيرة للتفرج عليها، ونعود بعد ذلك إلى فنتشال، هل سبق وجلت في انحاء الجزيرة خارج العاصمة؟» وعندما هزت رأسها نفياً، قال: «انك ستستمتعين بذلك جداً، أليس كذلك يا بورج؟»

فقال بورج: «هذا صحيح يا أوجيني، ويالها من فرصة ترين فيها المناظر برفقة شخص يعرف انحاء الجزيرة، فالإنسان بمفرده تفوته اشياء كثيرة حتى ولو كان عنده كتيب للسواح.» وابتسم لها وهو يتابع: «ما أحسن أن تكافأي على كل ذلك العمل الشاق الذي قمت به، لقد كنت رائعة.»

وربت الدكتور ريجنما على كتفها يذكرها: «الساعة الثامنة. لا تتاخري، يجب ألاّ نخسر لحظة من يوم راحتنا، أليس كذلك؟»

فنطقت بجملتها المعتادة بصوت خافت: «حسناً جداً يا سيدي.» رغم انها كانت تريد ان تفصح عن رأيها عن أولئك الأشخاص الذين يأخذون الأمر الذي يريدونه كأمر مسلم به دون ان يحملوا انفسهم عناء لاكتشاف رأي الطرف الآخر. وتابعت طريقها وفي نفسها صراع بين السرور لكونها ستمضي معه نهاراً كاملاً، وبين تبرمها من تصرفه الاستبدادي، وقد نجح السرور بالطبع.

امضت عصر اليوم بصحبة السيدة فان تيغ مستمعة إلى الخطط السعيدة لتلك السيدة بالنسبة لنقاهة زوجها، ثم جلست تتناول العشاء معها، ولم يكن ثمة أثر للدكتور ريجنما تير ساليس.

• • •

كان الجو يبشر بيوم دافيء. ارتدت احد اثوابها القطنية، وحملت قبعتها القش في يدها، كما علقت حقيبتها في كتفها بعد ان وضعت فيها كل ما تملكه من نقود. ثم هبطت السلم،

ولم تكن الساعة قد بلغت الثامنة بعد ولكنه كان هناك متكئاً على سيارة كان قد استعارها من القنصلية.

ألقى عليها تحية الصباح، ثم اجلسها في المقعد الأمامي، وصعد بجانبها متحركاً بالسيارة.

قالت له بصوت جاف: «أريد ان اعلم إلى أين نحن ذاهبان.»

«سنذهب أولاً إلى حدائق دراسة علم النبات حيث يوجد منظر رائع للميناء والمدينة. اتحبين الحدائق؟»

«آه، نعم. وهي كلها مختلفة هنا.»

«وبعد ذلك سنصعد إلى التلال حيث يقومون بصناعة القش والخيزران، هذا إذا كنت تحبين شراء حقيبة قش للتسوق.»

فنسيت ما كانت صممت عليه من البقاء جافة، «نعم أحب، وكذلك أمي...»

كانت الحدائق رائعة الجمال، ملأى بالأزهار الغريبة والنباتات، وكانت تحب لو تمضي فيها ساعات لولا أن الدكتور ريجنما اقترح متابعة الطريق، قائلاً: «وبهذا يمكنك ان تري قدر ما يمكنك رؤيته.»

كانت كاماشا على التلال، وهي مكان صغير يعمل فيه السكان في صنع سلالهم وكراسيهم، واشترت أوجيني سلتين، وكان بودها شراء كرسي خيزراني لو كانت تملك وسيلة لحملها إلى بلدها.

إجتاز بها التلال فوق العاصمة فانتشال حيث توقفا فترة لتناول القهوة في مونت، ثم تابعا طريقهما إلى كامارا دي لوبوس حيث تناولا الغداء، سمك مشوي، وذلك في مطعم

صغير يشرف على البحر. ليتابعا، بعد ذلك طريقهما على طول طريق الساحل، متوقفين لتناول الشاي في ريبيريا برافا حيث طافا حول المتاجر فترة.

كانت أوجيني تكاد تنفجر سروراً بصحبة الدكتور ريجنما، فقد اثبت انه مرافق مثالي ليس فقط لأنه يعرف الجزيرة بشكل كامل، فقد كان يجيب على كل اسئلتها بصبر وينتظر أثناء تفحصها محتويات المتاجر حيثما يصادف وقوفهما. كانت الدانتيلا رائعة الجمال، فاشترت غطاء مائدة لأمها ومناديل. كما اعجبت بالأواني ولكن نقودها كانت قد ابتدأت بالنفاد ما جعلها تكتفي فقط بشراء صحن صغير. حمل لفائفها حيث وضعها في السيارة ليتابعا المسير مرة أخرى وهو يحدثها ببعض المعلومات عن الأمكنة التي كانا يمران بها. كان دون شك، افضل واكثر امتاعاً بذلك من الشاب جان فان دال بمئة مرة، كما حدثت نفسها بأنها ستسمح لنفسها، ليوم واحد فقط، بأنها ستنسى انهما سيعودان إلى علاقتهما المهنية المطلقة تلك بعد مدة قصيرة، وأيضاً ستنسى خطيبته سافيرا والمستقبل المجهول عند عودتها إلى انكلترا، فهي ستستمتع بكل لحظة من وقتها الآن.

ويبدو ان هذا كان شعوره هو أيضاً، فقد سألها وهما في طريق العودة إلى فانتشال: «اتريدين العودة إلى القنصلية لتغيير ملابسك. ان بإمكاننا ان نتعشى في احد الفنادق الكبرى ريدز أو شيراتون، ام انك تفضلين ان نتعشى في كامارا لوبوس، فهناك مطاعم ريفية جيدة وبامكاننا ان نذهب إليها بملابسنا هذه.»

فأجابت: «نعم، من فضلك، فارتداء ملابس فخمة سيفسد علينا هذا اليوم...»

نظر إليها مبتسماً: «اننا متفقان في أشياء كثيرة، يا أوجيني، اننا سنذهب لتناول الطعام في مقهى ريبامار، وسيكون الطعام بسيطاً عبارة عن حساء الطماطم والبصل مرة أخرى، كما أظن. وبعض انواع السمك وآيس كريم.»

«هذا جميل جداً، وأنا جائعة.»

كان المطعم صغيراً ومزدحماً، ولكنهما اعطيا مائدة بجانب نافذة مفتوحة، وبالطبع، احضر لهما حساء الطماطم والبصل وبعض انواع السمك التي كانت مطهوة بشكل لذيذ، كانت الخدمة بطيئة فجلسا هناك حوالي الساعتين، وفيما بعد لم تستطع ان تتذكر ما كانا يتحدثان فيه اثناء ذلك. كان كل ما كانت تذكره هو أنها كانت سعيدة راضية.

وعندما عادا أخيراً إلى السيارة في رحلة العودة، كان الوقت متاخراً تماماً. وكان الليل رائعاً وآلاف النجوم تتلألأ محيطة بالقمر الذي كان ضوءه يتألق فوق المياه. وكانت مدينة فانتشال امامهما تتلألأ بالأنوار وعندما وصلا إليها، كانت بعكس الريف الهادىء، تموج بالناس.

سألها: «هل تريدين ان تشربي شيئاً؟»

أجابت: «كلا، كلا. شكراً لك. لقد كان يوماً رائعاً واشكرك لأنك اخذتني إلى كل تلك الأماكن. لقد استمتعت بكل لحظة.» وتنهدت برقة: «انني لن انسى هذا اليوم ابداً.»

فلم يجب، بل سار بالسيارة في الشوارع المزدحمة إلى ان وصل إلى القنصلية، وعند الباب، قالت له: «لا تخرج من السيارة، ان عليك ان تضع السيارة في الكاراج، أليس كذلك؟

اظنك ستخبرني في الصباح عن الوقت الذي علي ان اكون جاهزة فيه للسفر.»

لم يكن لكلامها ذاك ضرورة لأنه كان سبق وفتح لها باب السيارة قبل ان تنهي كلامها، وهو يقول: «سأحضر لك حاجياتك حالاً.» ثم سار معها إلى الباب حيث كان البواب يجلس مهوماً من النعاس.

وقفت أوجيني مادة يدها لتصافحه، قائلة: «تصبح على خير ياسيدي، لقد كان يوماً رائعاً حقاً... كل لحظة فيه كانت بالغة الجمالة.»

وقف الدكتور ريجنما تير ساليس ينظر إليها لحظة ثم إذا به يقول: «لقد كان كذلك حقاً، يا أوجيني، كما أنك انت رائعة الجمال كذلك.»

وفتح باب الردهة فانتبه البواب ونهض واقفاً ليرى الدكتور عائداً إلى السيارة دون ان ينظر خلفه.

ألقت أوجيني التحية على البواب ثم صعدت إلى غرفتها وهي تفكر في الدكتور ريجنما.

في اليوم التالي حياها على مائدة الإفطار كعادته تماماً عندما يحييها أثناء دورته في المستشفى، على مرضاه، ما لم تستطع معه الحديث عن يومهما الجميل ذاك، باكثر من تعليق بسيط وافقها عليه برزانة ثم خاض في حديث مهذب مع السيدة فان تيغ قبل ان ينهض، معتذراً بأنه سيذهب للقيام بالفحص النهائي لمريضه.

وعندما ذهب، قالت السيدة فان تيغ بكل ارتياح: «اظنك تحبين ان تودعي من تعرفت اليهم من موظفي المستشفى. اتريدين ان توصلك السيارة إلى هناك؟»

فقالت أوجيني انها تفضل السير على قدميها، إذ انها تنوي، في عودتها، شراء بعض الأشياء، ذلك انهما سيرحلان بعد الغداء مباشرة، وعليها ان تكون على استعداد في الساعة الواحدة والنصف. كان امامها الصباح بطوله، فسارت إلى المستشفى مودعة من كانت عرفته فيه بما فيهم مريضها. ثم اخذت تطوف الشوارع منفقة آخر ما بقي لديها من نقود حيث اشترت مجموعة من أزهار التنين رغم ضخامة حجمها الذي كان سيعيقها في نقلها بالطائرة، ولكنها تصورت انها ستكون جميلة حين تضعها في غرفتها في غرونينجن. ولكن الأزهار هذه قد حزمت جيداً على كل حال. فهي ستأخذها معها إلى الطائرة وعلى الدكتور ريجنما تير ساليس ان يتكفل بتدبيرها، وتناولت قهوة في مطعم قرب البحر لتعود بعد ذلك إلى القنصلية فتتناول غداءً مبكراً مع الدكتور ريجنما الذي كان مبدياً مودة فاترة، ومع مضيفتهما السيدة فان تيغ. وعندما رأى حزمة أزهار التنين وبقية صناديقها ولفائفها إزدادا فتوراً، ولكنه رصها في السيارة، ثم انتظرها إلى ان فرغت من توديع السيدة فان تيغ ثم سار نحو المطار. كان جان فان دال بانتظارهما حيث قادهما من قاعة الاستقبال إلى زاوية في المطار كانت تجثم فيها عدة طائرات صغيرة.

سألت: «هل سنذهب في إحدى هذه الطائرات؟»

أجابها جان: «انها مختصة بمهمات حكومية وهي اسرع كثيراً.» ونظر إلى أمتعتها الكثيرة. «لا باس، فهناك مكان لأزهارك وصناديقك.» وابتسم لها برزانة وهو يسألها: «هل تمكنت من الذهاب إلى ذلك المتحف؟»

فابتسمت له بطريقتها الودود: «كلا، لم يكن لدي ما يكفي من الوقت. ولكنه سيكون أول مكان أذهب إليه عندما احضر مرة أخرى.»

«هذا حسن، وسنذهب إليه معاً، انني اتطلع بشوق إلى ذلك.»

وكان الدكتور ريجنما تير ساليس واقفاً يستمع بصمت، ليقول معقباً: «يا لها من توقعات سارة بالنسبة إليكما انتما الاثنين، هل نحمل امتعتك يا أوجيني؟»

وفي الطائرة، دفن الدكتور ريجنما وجهه في كومة من الأوراق، ولكنه قبل ذلك، ناولها مجموعة من المجلات والصحف، متوقفاً عن القراءة فقط ليقدم إليها قهوة. وقرأت هي المجلات من الغلاف للغلاف، وبعد ذلك جلست تحدق من نافذة الطائرة إلى البحر اسفل، إلى ان اصبحوا فوق البر، فأخذت تحدق في ذلك أيضاً، ولكن بما ان ليس لديها فكرة عن مكانهم، فقد افترضت ان هذا هو البحر الأطلسي.

قدمت إليها القهوة والشطائر، وسئلت ما إذا كانت مرتاحة، ثم تركت مرة أرى لشانها، وهكذا أخرجت قلماً واخذت تكتب على ظهر مفكرتها بعض الحسابات. لقد كانت انفقت لكثر نقودها التي احضرتها معها، ولكنها مازالت تحتفظ بمبلغ لا بأس به ادخرته للمستقبل، ذلك انها، عند عودتها إلى انكلترا، ستذهب إلى بيتها لعدة اسابيع، لتبحث عن وظيفة على مهل على ألاّ تكون بعيدة عن أسرتها. وتوقفت عن حساباتها لتفكر في المستقبل. لقد كانت تجاهلت ذلك أثناء وجودها في ماديرا، إنما عليها أن

تواجهه الآن. ان عدم رؤيتها له مرة أخرى هو شيء عليها أن تواجهه. إنما ليس الآن، فمازال هناك عدة أسابيع قبل ان تاتي ممرضته التي ستاخذ مكانها في العمليات، ومن الواضح انهما، وهما يعودان إلى غرونينجن، سيستانفان علاقتهما العملية، ويومهما الرائع في ماديرا لم يكن سوى حادث صغير في حياته، وقد نسيه الآن دون شك في غمرة توقعه اللقاء الوشيك بسافيرا.

كانا يطيران الآن فوق هولندا، مسرعين نحو غرونينجن، عندما قال: «إذا لم تكوني متعبة للغاية غداً، فانا ساريدك في العمل بعد الظهر، إذ هنالك امرأة عصبية تصر على ان تعاين كل شخص له علاقة بعمليتها قبل ان تجرى لها، وذلك في المستشفى الساعة الواحدة.»

وعندما رأى نظرة الدهشة في عينيها، عاد يقول: «انها شخصية مرموقة...»

«حسناً يا سيدي. إلى أين يجب ان اذهب؟»

«إلى عيادتي، وساعطيك العنوان.»

سكت وقد بان عليه الشرود، وحدثت نفسها بانه لا بد يفكر في سافيرا، ربما ستكون في استقباله في المطار.

هبطت بهما الطائرة، وكانت هناك سيارة في انتظارهما ورجل انيق الهندام حيا الدكتور ريجنما تير ساليس بإلفة وتهذيب، ولم تكن سافيرا هناك. انها طبعاً، ستكون بانتظاره في البيت...

صعدت أوجيني في السيارة بجانب الدكتور ريجنما حيث ساروا إلى المستشفى، دون اضاعة وقت، حين نزل هو من السيارة، ثم ناول الحمال حقيبتها واشياءها الأخرى وهو

ينكرها بالا تتأخر عن الموعد غداً، ثم قاد السيارة بنفسه مبتعداً بها وبجانبه جاب حسب ما سمعت الأسم...

وحدثت نفسها وهي في طريقها إلى غرفتها، حسناً، هكذا الأمر إذن والآن، يجب ان انسى كل شيء عن ذلك.

حيتها الممرضة كروسما بسرور: «انا مسرورة لعودتك، وقد سمعت ان كل شيء هناك كان مرضياً تماماً، هل استمتعت بزيارة ماديرا؟» ولم تنتظر الجواب وهي تتابع: «ان عليك ان تذهبي إلى المدخل الأمامي حيث هناك سيارة ستأخذك إلى عيادة الدكتور ريجنما تير ساليس. وعندما ينتهي الغرض من وجودك هناك، ستعود بك السيارة إلى هنا، وعند عودتك ستبقين في العمل إلى ان يبتدىء دوام ممرضات الليل.» وحدقت في قائمة توزيع أوقات العمل الموضوعة على مكتبها وهي تتابع قائلة: «لا يوجد عمليات يومي السبت والأحد، إذن يمكنك ان تأخذي هذين اليومين عطلتك الأسبوعية... هنالك ثلاث عمليات في القلب. وفي اليوم التالي استبدال صمام القلب. كما ان هناك طفل ذو عيب خلقي في القلب. ولم يحدد ما إذا كانت ستجرى له عملية ومتى. والآن، اسرعي قبل ان تتأخري.»

ان هذا سيشغلها على الأقل... كان هذا ما كانت تفكر أوجيني به وهي تسرع نحو المدخل، وكان جاب هناك داخل سيارة روفر، فحياها بينما صعدت هي بجانبه وهي تساله: «اظنك تتكلم الانكليزية.»

كان يتكلم الانكليزية فعلاً انما بلكنة ثقيلة فسالته: «هل تشتغل عند الدكتور ريجنما تير ساليس؟» فاخبرها انه يشتغل عنده منذ سنوات، وان زوجته هي مدبرة منزله.

فتمنت لو توجه إليه اسئلة أخرى ولكنها لم تجرؤ. وفي هذه الأثناء كان قد أوقف السيارة في شارع واسع تقوم على جانبيه منازل مرتفعة فنزل وساعدها على النزول إلى الرصيف حيث اتجه بها إلى باب كبير ذي مطرقة نحاسية ضخمة. اخرج مفتاحاً فتح به الباب طالباً منها الصعود إلى الطابق الأول ثم اغلق الباب خلفها.

كانت الردهة عالية السقف ضيقة من جراء السلم الذي يقوم في ناحية منها. فصعدت ببطء وهي تتطلع حولها، إلى ان وصلت إلى الطابق المنشود فوقفت تقرأ الأسماء المدونة على الأبواب الأربعة هناك. كانوا جميعاً من الأطباء وكان اسم الدكتور ريجنما تير ساليس على الباب الأخير، مسبوقاً بلقب بروفيسور وفتحت الباب.

كانت غرفة انتظار على الأغلب إذ كانت تنتشر في انحائها المقاعد كما كان هناك منضدة صغيرة تحت نافذة عالية وضعت عليها بعض المجلات. وكان هناك مكتب جلست خلفه امرأة صارمة الملامح قد شدت شعرها إلى الخلف ما اظهر وجهها الطويل، ولكن ابتسامتها كانت حلوة وهي تقول: «الممرضة سبنسر؟ ساعطيه خبراً بوجودك.» كانت انكليزيتها دون لكنة تقريباً ما جعل اوجيني تشعر بالحسد لها وهي التي كانت تتلعثم بنطق عدة كلمات هولندية استطاعت ان تتعلمها.

طلبت منها المرأة ان تدخل، مشيرة إلى باب هناك، فدخلت أوجيني.

كان الدكتور ريجنما تير ساليس جالساً خلف مكتبه يكتب، ولكنه نهض واقفاً عند دخولها.

«اجلسي يا أوجيني... ان مريضتي ستكون هنا قريباً وعندما ننتهي من حديثنا اريدك ان تعودي معها إلى المستشفى حيث ترينها غرفة العمليات. وستجدين طبيب البنج هناك، امكثي معها أثناء حديثها ثم اوصليها إلى السيارة. ربما تظنين ان هذا أمراً غير عادي، وهذا صحيح، ولكنها مريضة خاصة.»

لم تستطع التفكير في شيء تقوله، انما قال لها بعد لحظة: «انها امرأة ذات شهرة دولية فهي، بطبيعة الحال، تريد ان تخفي شخصيتها، فالمرض هو شيء لا يريد المشهورون ان يعترفوا به.»

«لماذا إذن تريد ان ترانا وترى غرفة العمليات؟ لماذا تريد مقابلتنا؟»

فأجاب بشبه ابتسامة: «لأنها خائفة جداً، فمقابلتنا والتحدث إلينا ربما يساعدها على ان تالف فكرة العملية.»

ونهض ليسير إلى النافذة ينظر منها ثم يسالها: «هل استمتعت بالأيام التي قضيناها في ماديرا؟»

أجابت: «كثيراً جداً.» وحاولت ان يبدو صوتها بارداً ولكن احمرار وجهها افسد ذلك. لم يبد عليه انه لاحظ هذا، وهو يقول: «كانت عملية ناجحة. وقد كان عملك حسناً جداً يا أوجيني. انك فتاة هادئة الأعصاب تماماً.»

لم يكن ثمة فائدة من معارضته في رأيه هذا، وانقذها دخول مريضته في هذه اللحظة، من متابعة هذا الحديث.

كانت الساعة التي مرت عليها، بعد ذلك، بمثابة محنة قاسية، حدثت أوجيني نفسها، بعدها أنه إذا كانت الشهرة تجعل المرء بهذا الشكل، فمن الأفضل لها إذن، ان تبقى كما

هي. كانت المريضة فاتنة رائعة الجمال شديدة القلق والخوف على نفسها، واخذت اوجيني تنظر إلى الدكتور ريجنما وهو يحاول ان يقنعها، ببالغ اللطف، بإجراء العملية والبقاء بعد ذلك فترة بعيدة عن الأنظار، فأعجبت باسلوبه في ذلك وبصبره البالغ، كما أن طبيب البنج كان يحاول معها ذلك أيضاً وبكل ما يملكه من لطف، ورقة، لتغادر المريضة المستشفى اخيراً وقد اقتنعت بانها نموذج للشجاعة والتعقل، بعد ان ودعت الجميع بكياسة ملوكية.

وقالت الممرضة كورسما بعد ذهابها: «اشعر بالسرور لقلة ما يأتينا من امثال هذه السيدة، انك ستقفين مع الدكتور ريجنما في العملية يا أوجيني بطبيعة الحال.»

مر بقية الأسبوع بسهولة، اما الدكتور ريجنما فلم يبد له أثر مطلقاً، كما ان مساعديه لم يشيروا إلى مكان وجوده، وهكذا اخذت أوجيني عطلتها الأسبوعية مساء الجمعة، شاعرة بالإحباط. حاولت ألاّ تفكر في أنه يمضي الوقت في مكان ما مستمتعاً بصحبة سافيرا، ثم اخذت تفكر في ما يمكنها أن تفعله في عطلتها هذه. كانت قد قررت الذهاب يوم الأحد للقيام بجولة في المدينة على الأقدام، ثم تتناول غداء خفيفاً في احد المقاهي الكثيرة هناك لتمضي فترة، العصر في حدائق بريزينتهوف حيث تتناول الشاي بعد ذلك في احد الفنادق، ومن ثم تعود إلى المستشفى، ذلك أن يوم الاثنين سيكون يوماً حافلاً...

اما يوم السبت فهو شأن آخر، صحيح ان هناك الكثير مما يمكنها أن تراه في غرونينجن، ولكنها ستغتنم الفرصة فتزور بعض المناطق الريفية المحيطة بالمدينة.

انها ستستقل الباص إذ لديها قائمة بأوقات سيره وأسماء بعض المدن الصغيرة. وقررت زيارة مدينة هيليجيرلي لا لسبب سوى انها استساغت الاسم، وكان هناك باصات تذهب إلى وينشوتن وذلك على مسافة قريبة منها. فثلاثة وعشرون ميلاً لم تكن مسافة بعيدة وكان هنالك قطار أيضاً...

بعد ان وضعت برنامج عطلتها كما تحب، أمضت أمسية جميلة في غرفة الجلوس مع زميلاتها، متفرجة على برامج التلفزيون.

الفصل السادس

قررت أوجيني ان تستقل الباص قبل الساعة الحادية عشرة، حيث تصل إلى هيليجيرلي في منتصف النهار وتمضي فترة العصر هناك، ومن ثم تعود أول المساء فتتناول شيئاً من الطعام في مكان هادىء في غرونينجن. كانت كذلك بحاجة إلى شراء بعض الحاجيات من صابون ومعجون اسنان وشامبو وكذلك بعض الهدايا إذا وجدت شيئاً مناسباً.

عندما خرجت من القهى، شعرت بخيبة الأمل وهي ترى السماء قد ابتدأت تكتسحها الغيوم فسارت بسرعة لكيلا يفوتها الباص وقد ملأت ذهنها صورة الدكتور ريجنما تير ساليس، متسائلة أين عسى أن يكون وماذا يقوم به، عندما وقفت بجانبها سيارة بنتلي بهدوء وفتح الباب ليقول لها: «إلى أين انت ذاهبة؟»

شحب وجهها إزاء هذه المفاجأة كما أثارت اعصابها رغم ان الحياة بدت لها رائعة بشكل مفاجىء، وقالت له بحدة: «ما كان لك ان تزحف نحوي كالأفعى. انني ذاهبة لاستقل الباص...»

«إصعدي إذن، ساوصلك إلى محطة الباصات.»

«هذا لطف بالغ منك، ولكن المكان غير بعيد ويمكنني ان أسير إليه مشياً.»

ابتدأت قطرات المطر بالنزول بينما كانت هي تتابع: «ليس ثمة حاجة لأن...»

www.liilas.com الشجرة

والتمع البرق ليتبعه هزيم الرعد وهطول المطر في نفس الوقت، ودفع خوف أوجيني الصبياني من البرق والرعد إلى دخول السيارة وقد أغمضت عينيها بشدة، وهي تقول: «انني اخاف العواصف.» ثم اطلقت صرخة صغيرة عندما ابتدأ قصف الرعد الهائل يهدأ، انما بشكل ينذر بالشر.

فقال لها يرفه عنها: «تحدث عندنا هنا، احياناً، عواصف سيئة، يمكنك ان تستقلي الباص الثاني، ودعيني في نفس الوقت، اقدم اليك فنجان قهوة.»

نظرت إليه بحذر: «آسفة لكوني بهذه الحماقة. انني بخير الآن، هوذا الباص...»

ولكنه تحرك بالسيارة مجتازاً إياه وهو يقول: «ان العاصفة لم تنته بعد.» والتمع البرق وهو يتابع قائلاً: «والأفضل ان تنتظري فترة، انها لن تستمر طويلاً.»

وتابع سيره متجاوزاً قلب المدينة، والمنازل الجميلة والقنال، ولكن أوجيني، وقد شعرت الآن بالأمان سألته بحدة: «اين كنت؟ لقد مرت أيام...»

فقال بلطف: «هنالك ثلاثة مستشفيات في غرونينجن، يا أوجيني، لي عيادات في كل منها، كما انني أجري عمليات في واحد منها.»

فتمتمت تقول: «حسناً، ليس هذا من شأني.» وشهقت عندما أضاء البرق مرة أخرى.

أوقف الدكتور ريجنما تير ساليس السيارة في منتصف الشارع، وخرج منها، وعندما فتح بابها يساعدها على النزول سألته مستفهمة: «ماهذا المكان؟»

ولم تكن ثمة فائدة من النقاش على الرصيف، وهكذا

صعدت معه عدة درجات إلى حيث كان باب قوي متين قادر على صد أي عدوان.

كان ثمة رواق ذو باب زجاجي يؤدي إلى قاعة واسعة مبطنة الجدران بخشب قاتم، والأرض مبلطة برخام أسود وأبيض. كما كانت هناك ثريات من الكريستال تتدلى من السقف، هذا إلى سلم ذي درابزين خشبي.

قال لها: «ان قدميك مبلولتان فاخلعي حذاءك وستجففه ميانتج.»

امتثلت لما قال وهي تضع يدها على شعرها تابع يقول: «لا بأس بالنسبة لشعرك، تعالي واشربي فنجان قهوة.» ثم استدار ليرى امرأة طويلة القامة متينة البنية تتقدم نحوهما من خلال باب خلف القاعة.

فقال: «آه، ميانتج.» واخذ يتحدث بالهولندية لحظة، قال بعدها: «هذه ميانتج مديرة منزلي يا أوجيني.»

مدت إليها أوجيني يدها تصافحها قائلة: «أهلاً، كيف حالك؟» وذلك بطريقتها الودود وكانت إحدى زميلاتها سبق وعلمتها كلمات الترحيب باللغة الهولندية، ولكنها لم تشأ ان تجعله يضحك عليها إذ تتكلم لغته بلفظ متكسر، وعلى كل حال، يبدو ان ميانتج قد فهمت ما قالته لأنها ابتسمت لها.

ووراء الباب خلف القاعة كان يجثم كلب، فالقت أوجيني على مضيفها نظرة مستفهمة، فقال: «انه باتش وسترينه فيما بعد.» وأومأ إلى مدبرة المنزل، ثم أخذ أوجيني متجهاً بها نحو أحد أبواب القاعة. كانت الغرفة رائعة ذات سقف عالٍ مجصص، ونوافذ مستطيلة، وكانت هناك مقاعد هزازة كبيرة وأريكتان مقابلتان للمدفأة، وخزائن بواجهات

زجاجية على مدى الجدران ومناضد من خشب الماهوغاني ذات الثلاث قوائم موضوعة في أمكنتها المناسبة، كما كانت هناك نافذتان عاليتان لنسدلت فوقهما ستائر من الساتان بلون التوت الأحمر، هذا إلى سجادة حريرية كبيرة تغطي معظم الأرض الخشبية.

هتفت أوجيني: «آه، ما اجمل هذا.» ثم شهقت وهي ترى سافيرا تنهض من على كرسي ثم تتقدم نحوهما بخطوات واسعة.

منحت أوجيني ابتسامة باردة، ثم اخذت تتكلم مع الدكتور ريجنما تير ساليس باللغة الهولندية.

اجابها باللغة الانكليزية، قائلاً: «آه، سافيرا... يالها من مفاجأة حلوة سنتناول جميعاً القهوة معاً. لقد اعدت أوجيني معي إلى ان تهدأ العاصفة.» وقدم كرسياً لأوجيني ثم جلس على كرسي هزاز كبير مواجهاً المرأتين. كانت تصرفاته في منتهى اللين والرقة، وبحثت أوجيني عن موضوع مناسب للحديث، فسألت بأدب: «ما هي سلالة كلبك، باتش، هل استطيع رؤيته؟»

فأجاب: «انه مختلط النسب، وسترينه بكل تاكيد قبل خروجك. ان سافيرا تجد الكلاب والهررة مزعجين في المنزل، ولهذا نبعده إلى المطبخ أثناء وجودها.»

فقالت سافيرا وهي تمهد تنورتها الكشمير: «انها تتلف ثيابي.» ونظرت باستخفاف إلى تنورة أوجيني البسيطة ثم إلى قميصها وسترتها الصوفية التي كانت أوجيني ابتاعتها من متجر ماركس وسبنسر الشعبي وهي تتابع قائلة: «طبعاً، إذا لم تكن الملابس ذات أهمية...»

حدثت أوجيني نفسها متمنية لو تهزها هزاً عنيفاً لسوء أدبها هذا، ولكنها بدلاً من ذلك، قالت بابتسامة بالغة الحلاوة: «حسناً، انها ليست ذات أهمية حقاً، أليس كذلك؟ خصوصاً إذا كان هناك كلاب واطفال. ان ذلك تضييع للوقت أيضاً.»

بقي وجه الدكتور ريجنما جامداً وهو يقول: «من المفروض ان يرتدي الشخص مايلائم المناسبة... آه، ها هي ذي القهوة قادمة.»

كان يحمل صينية القهوة نفس الرجل الذي سبق وقاد السيارة باوجيني إلى عيادة الدكتور ريجنما، حياها مبتسماً وهو يضع الصينية على منضدة صغيرة بينهم. وعندما تكلمت معه سافيرا بحدة، تردد، ثم نظر إلى سيده.

كان صوت الدكتور ريجنما هادئاً وهو يتكلم، بينما تمنت أوجيني لو تستطيع فهم ما كان يقول، كان شيئاً جعل سافيرا تعض شفتها السفلى غاضبة، ولكنها، مع هذا، وقفت تسكب القهوة، فناول أوجيني فنجاناً قبل ان يأخذ فنجانه وهو يقول: «إلى أين كنت قررت الذهاب، يا أوجيني.»

فأجابت: «إلى هيليجيرلي، هنالك باصات جيدة.»

سألتها سافيرا: «لماذا تريدين الذهاب إلى هناك؟ لا يوجد شيء في ذلك المكان.»

أجابت: «لقد أعجبني الاسم.»

فقال الدكتور ريجنما: «انه سبب يصلح لزيارة مكان ما، انهم يصنعون الأجراس هناك، هل تعلمين هذا؟ وهم يرسلونها إلى كل أنحاء العالم، انها مدينة صغيرة إنما جميلة وستسرك كثيراً.»

مرت العاصفة، انما بقي برق خفيف إلى دمدمة الرعد.

ولكن السماء لم تعد ملبدة بالغيوم فوضعت أوجيني فنجان القهوة من يدها، قائلة له: «كان لطفاً منك ان جعلتني ألجأ إلى هنا. انا واثقة من انني سأسر برحلتي هذه وها قد عاد الجو جميلاً.»

وقفت، فوقف هو قائلاً: «تعالي لتري باتش قبل ان تذهبي.»

فابتسمت لسافيرا قائلة: «وداعاً، أرجو ألاّ لكون عطلت عليك صباحك.»

هزت سافيرا كتفيها قائلة: «استمتعي برحلتك. اظنك بمفردك؟»

كانت ملاحظة لم تجدها أوجيني تستحق جواباً، مشى الدكتور ريجنما أمامها مجتازاً القاعة ليمر من خلال باب بجانب السلم، وكانت هناك عدة درجات نزولاً ثم باب آخر نفذا منه إلى مطبخ فسيح، وتنهدت مسرورة لدى رؤيتها له. كان مبلطاً بأحجار صغيرة مربعة بينما امتدت على الجدار رفوف محملة بمختلف أنواع الأطباق وسخان عصري جداً اقيم بشكل متلائم تماماً مع ما يحيط به من معدات قديمة الطراز. وفي الوسط قامت مائدة فسيحة محاطة بالكراسي. وكانت هناك حلل نحاسية على الرفوف، ولكوام من الخضر الطازجة على المائدة. كانت ميانتج واقفة هناك، بينما وقفت فتاتان عند حوض الغسيل في الطرف الآخر من المطبخ، تغسلان الأطباق الصينية، فتوقفتا عن العمل عند دخول الدكتور ريجنما ولكنهما عادتا للعمل بإشارة من ميانتج.

قال الدكتور ريجنما شيئاً اضحكهن جميعاً، ثم استدار

يتلقى تحية سرور من باتش والذي كان كلباً متعدد الأنساب ما يجعل من المتعذر وصفه. كان ضخماً طويل الشعر بوجه ثعلب وعينين عاطفيتين بعكس صفي اسنانه المتينة الحادة.

اقتربت اوجيني منه تتحدث إليه: «انك رائع الجمال، فأنت خليط من أحسن النواع الكلاب.»

فاغمض باتش عينيه وتنهد سعيداً عندما اخذت تخمش قمة رأسه.

وسألت: «هل هو مرغم على السكن في المطبخ؟»

أجاب الدكتور ريجنما: «كلا بالطبع، فهو حر في الطواف في أنحاء المنزل.»

«ولكن عندما تتزوج...» ونظرت في عينيه فأمسكت عن متابعة الكلام، بينما قال هو برقة: «انني لا أعبر الجسر قبل ان اصل إليه.»

عندئذ وقفت واتجهت إلى الباب، ثم حيث مدبرة المنزل وعادت إلى القاعة وهو في إثرها عند ذلك وقفت ومدت له يدها مصافحة وهي تقول: «اشكرك مرة أخرى، انني ممتنة لك جداً.»

مشى معها إلى الباب وفتحه لها، وهو يقول: «ان قريتك دارتمور بعيدة جداً، هل تتمنين لو كنت هناك؟»

فأجابت: «انني مشتاقة إليها حقاً، ولكنني مسرورة هنا جداً.»

«لماذا؟»

تجنبت نظراته وهي تجيب: «آه، لأسباب كثيرة.» وخرجت من الباب قائلة: «إلى اللقاء يا سيدي.»

ينكرها بالا تتأخر عن الموعد غداً، ثم قاد السيارة بنفسه مبتعداً بها وبجانبه جاب حسب ما سمعت الأسم...

وحدثت نفسها وهي في طريقها إلى غرفتها، حسناً، هكذا الأمر إذن والآن، يجب ان انسى كل شيء عن ذلك.

حيتها الممرضة كروسما بسرور: «انا مسرورة لعودتك، وقد سمعت ان كل شيء هناك كان مرضياً تماماً، هل استمتعت بزيارة ماديرا؟» ولم تنتظر الجواب وهي تتابع: «ان عليك ان تذهبي إلى المدخل الأمامي حيث هناك سيارة ستأخذك إلى عيادة الدكتور ريجنما تير ساليس. وعندما ينتهي الغرض من وجودك هناك، ستعود بك السيارة إلى هنا، وعند عودتك ستبقين في العمل إلى ان يبتدىء دوام ممرضات الليل.» وحدقت في قائمة توزيع أوقات العمل الموضوعة على مكتبها وهي تتابع قائلة: «لا يوجد عمليات يومي السبت والأحد، إذن يمكنك ان تأخذي هذين اليومين عطلتك الأسبوعية... هنالك ثلاث عمليات في القلب. وفي اليوم التالي استبدال صمام القلب. كما ان هناك طفل ذو عيب خلقي في القلب. ولم يحدد ما إذا كانت ستجرى له عملية ومتى. والآن، اسرعي قبل ان تتأخري.»

ان هذا سيشغلها على الأقل... كان هذا ما كانت تفكر أوجيني به وهي تسرع نحو المدخل، وكان جاب هناك داخل سيارة روفر، فحياها بينما صعدت هي بجانبه وهي تساله: «اظنك تتكلم الانكليزية.»

كان يتكلم الانكليزية فعلاً انما بلكنة ثقيلة فسالته: «هل تشتغل عند الدكتور ريجنما تير ساليس؟» فاخبرها انه يشتغل عنده منذ سنوات، وان زوجته هي مدبرة منزله.

فتمنت لو توجه إليه اسئلة أخرى ولكنها لم تجرؤ. وفي هذه الأثناء كان قد أوقف السيارة في شارع واسع تقوم على جانبيه منازل مرتفعة فنزل وساعدها على النزول إلى الرصيف حيث اتجه بها إلى باب كبير ذي مطرقة نحاسية ضخمة. اخرج مفتاحاً فتح به الباب طالباً منها الصعود إلى الطابق الأول ثم اغلق الباب خلفها.

كانت الردهة عالية السقف ضيقة من جراء السلم الذي يقوم في ناحية منها. فصعدت ببطء وهي تتطلع حولها، إلى ان وصلت إلى الطابق المنشود فوقفت تقرأ الأسماء المدونة على الأبواب الأربعة هناك. كانوا جميعاً من الأطباء وكان اسم الدكتور ريجنما تير ساليس على الباب الأخير، مسبوقاً بلقب بروفيسور وفتحت الباب.

كانت غرفة انتظار على الأغلب إذ كانت تنتشر في انحائها المقاعد كما كان هناك منضدة صغيرة تحت نافذة عالية وضعت عليها بعض المجلات. وكان هناك مكتب جلست خلفه امرأة صارمة الملامح قد شدت شعرها إلى الخلف ما اظهر وجهها الطويل، ولكن ابتسامتها كانت حلوة وهي تقول: «الممرضة سبنسر؟ ساعطيه خبراً بوجودك.» كانت انكليزيتها دون لكنة تقريباً ما جعل اوجيني تشعر بالحسد لها وهي التي كانت تتلعثم بنطق عدة كلمات هولندية استطاعت ان تتعلمها.

طلبت منها المرأة ان تدخل، مشيرة إلى باب هناك، فدخلت أوجيني.

كان الدكتور ريجنما تير ساليس جالساً خلف مكتبه يكتب، ولكنه نهض واقفاً عند دخولها.

في غرفة الجلوس فجلس بينهما وهما يتناولان العصير، ليرافقهما، بعد ذلك إلى غرفة الطعام، حيث كان عشاؤهما مكوناً من حساء القطر، والبطاطا الصلصة السوداء ثم فطيرة التفاح تعلوها كمية كبيرة من القشدة، وتساءلت أوجيني عما إذا كان الدكتور ريجنما يتعشى دوماً بين هذا الترف والجمال، يحيط به الأغطية والمناشف المطرزة والأواني الفضية والبلورية الجميلة، ام ان ذلك فقط لأنها هنا، وكانت تتصوره دوماً يأكل وحده على مائدة جرداء وقد يكون هناك كتاب مفتوح امامه... هذا طبعاً إذا لم تكن سافيرا معه.

لم يأتيا على ذكر تلك المرأة، فقد تكلما في كثير من المواضيع الهامة، ليس بينها أمور شخصية أو جادة بشكل خاص، ولكنها كانت مسرورة وهي تجد ان ميولهما منسجمة وذوقهما متشابه بالنسبة إلى الكتب والموسيقى، وفي انهما لا يجدان وقتاً للتلفزيون، ويحبان السير على الأقدام تحت المطر، فقد كانت هذه هي المرة الأولى التي تحدثا فيها حقيقة، وشعرت براحة كبرى معه.

عادا على الفور إلى غرفة الجلوس حيث جلسا يتناولان القهوة، بينما باتش غافٍ مغمض العينين وقد اسند ذقنه على حذاء سيده.

ودقت الساعة الأينوسية المعلقة فوق المدفأة دقة تعلن الساعة العاشرة، ما جعل أوجيني تقف قائلة: «لم يكن لدي فكرة... لقد أمضيت وقتاً طويلاً وما كان لي ان افعل هذا. أرجو ألاّ اكون عطلتك عن القيام بأمر ما.»

بدا عليها الارتباك، ووقف هو أيضاً إنما متمهلاً وهو يقول: «كانت أمسية ممتعة وأنا شاكر لك جداً بقاءك لتؤنسي

وحدتي. وصدقيني لم يكن عندي ما أقوم به، وساعيدك بسيارتي إلى المستشفى.»

• • •

كانت تستعد للنوم عندما دعيت للإجابة على مكالمة هاتفية باسمها.

كان الدكتور ريجنما تير ساليس الذي كان يقول: «اننا سنسافر إلى البوسنة في الساعة الثامنة من صباح الغد.» كانت لهجته وكأنه يطلب منها أن تستقل الباص لكي تذهب إلى مكان معين في لندن. «ستتسلمين الملابس التي سترتدينها هناك في الطائرة. سأجري عمليتين لولدين اصابتهما بالغة بحيث لا يستطيعان السفر بالطائرة من دون جراحة. وهما مصابان بشظايا في القلب، وسيكون معنا راف فان غروت وكذلك أحد التقنيين، انني اريد كل أدواتي وكذلك الامصال وباقي المعدات. فهل لك ان تهتمي بكل ذلك؟ ستأتي إليك السيارة في الساعة السابعة من صباح الغد.» واقفل الهاتف تاركاً إياها فاغرة الفم، وبعد لحظة عادت إلى غرفتها لتعود فترتدي ثياب التمريض على كل حال، فهذا هو سبب وجودها هنا.

كانت الممرضة كورسما ما زالت في العمل تسلم المسؤولية إلى الممرضة الليلية، فاخبرتهما أوجيني بالأمر، وهي تستمع، بإذعان، إلى ما سبق وذكرت نفسها به، ألا وهو ان هذا هو السبب في وجودها هنا، ومن ثم ابتدأت في جمع ما تريد أخذه من معدات، وقد استغرق هذا بعض الوقت إلى ان اقبل راف فان غروت طبيب البنج الذي اخبرها، ببشاشة، بأنه سيكون عليهم العمل مع المرضى

فأمسك بيدها قائلاً: «هل أبدو لك كبير السن لتقولي لي يا سيدي في كل لحظة؟»

أجابت: «انك لست كبير السن، ما الذي جعلك تظن ذلك؟ ذلك فقط لأنك استشاري. فأنا لا افكر بك كسيد، كما تعلم.»

فابتسم ببطء، ثم قال: «استمتعي بنهارك، يا أوجيني.»

استقلت الباص وأمضت بقية النهار في هيليجيرلي تتفرج على الأجراس، وتطوف الشوارع، وتنظر معجبة إلى البيوت. تناولت غداءها في مطعم صغير حيث جربت الكلمات القليلة التي تعلمتها من اللغة الهولندية، وعند العصر استقلت الباص عائدة إلى غرونينجن وهي تفكر في ما ستفعله هذا المساء، فالعودة إلى المستشفى يعني تضييع ساعات من يومها، ومن ناحية أخرى كانت مترددة في تناول الطعام وحدها في المطعم. إن بإمكانها ان تذهب إلى السينما طبعاً. ووقفت في محطة الباصات مترددة.

«كم انا محظوظ إذ لجدك هنا.» وكان هذا صوت الدكتور ريجنما تير ساليس انطلق فجأة ما جعلها تجفل، بينما كان هو يتابع قائلاً: «اشفقي عليّ ورافقيني عدة ساعات.»

وقبل ان تتكلم، اضاف قائلاً: «لقد ذهبت سافيرا إلى حفلة عشاء ولكن عليّ ان ابقى في البيت لئلا يكونوا بحاجة إليّ.» تفحصت وجهه، ثم قالت بحذر: «لقد كنت راجعة إلى المستشفى.»

«آه، إذن فستشفقين عليّ إذا لم يكن لديك شيء آخر تفعلينه. فأنا أكره أن اتناول العشاء بمفردي.»

قالت وقد صدقته: «وأنا أيضاً كذلك... خصوصاً في بلد غريب.»

«هذا عظيم. كنت ذاهباً مشياً على الأقدام، فهو ليس بعيداً.»

فقالت متوسلة: «فليكن مكانا هادئاً تماماً، من فضلك، فثيابي ليست لائقة، وقد أمضيت بها النهار بطوله.»

«سيكون مكاناً هادئاً فعلاً.»

ولم تدرك انهما كانا يقصدان بيته إلا بعد لحظات. فوقفت في منتصف الرصيف تنظر إليه متسائلة، ولكنه استطاع ان يسبقها بالقول: «هل لديك مانع؟ إذا كانوا بحاجة إليّ، لا يمكنك ان تتصوري كم سيضيعون من الوقت لكي يجدوني، هذا إلى ان ذلك سيمنحني الفرصة لكي نناقش قائمة عمليات يوم الاثنين، فهناك أشياء...»

وبهذا تابعت طريقها، فقد بدا لها كلامه الآن معقولاً كما كانت تتضور جوعاً، هذا إلى ان وجودها غير المنتظر معه قد اسعدها كثيراً... وحدثت نفسها قائلة انها لو كانت سافيرا لرفضت الخروج من دونه...

وإذ كان الدكتور ريجنما تير ساليس ينظر إلى وجهها بشكل عارض، تكهن بفطنته، بما كانت تفكر فيه، فقد كانت أفكاره مشغولة مثلها، ولكن لم يكن يبدو على وجهه أي منها.

استقبلتهما ميانتج حين وصولهما، ووعدت بإعداد العشاء بعد ساعة، بينما قاد جاب زوجها، أوجيني إلى غرفة نوم جميلة في الطابق الأعلى لكي تتمكن من اصلاح مظهرها. بعد عشر دقائق نزلت إلى الطابق الأرضي وقد أصبح شعرها بالغ التنظيم بينما وجهها الجميل مزيناً بعناية وتمنت لو كانت ارتدت ثوباً جميلاً. وجاء باتش إليهم

في غرفة الجلوس فجلس بينهما وهما يتناولان العصير، ليرافقهما، بعد ذلك إلى غرفة الطعام، حيث كان عشاؤهما مكوناً من حساء القطر، والبطاطا الصلصة السوداء ثم فطيرة التفاح تعلوها كمية كبيرة من القشدة، وتساءلت أوجيني عما إذا كان الدكتور ريجنما يتعشى دوماً بين هذا الترف والجمال، يحيط به الأغطية والمناشف المطرزة والأواني الفضية والبلورية الجميلة، ام ان ذلك فقط لأنها هنا، وكانت تتصوره دوماً يأكل وحده على مائدة جرداء وقد يكون هناك كتاب مفتوح امامه... هذا طبعاً إذا لم تكن سافيرا معه.

لم يأتيا على ذكر تلك المرأة، فقد تكلما في كثير من المواضيع الهامة، ليس بينها أمور شخصية أو جادة بشكل خاص، ولكنها كانت مسرورة وهي تجد ان ميولهما منسجمة وذوقهما متشابه بالنسبة إلى الكتب والموسيقى، وفي انهما لا يجدان وقتاً للتلفزيون، ويحبان السير على الأقدام تحت المطر، فقد كانت هذه هي المرة الأولى التي تحدثا فيها حقيقة، وشعرت براحة كبرى معه.

عادا على الفور إلى غرفة الجلوس حيث جلسا يتناولان القهوة، بينما باتش غافٍ مغمض العينين وقد اسند ذقنه على حذاء سيده.

ودقت الساعة الأينوسية المعلقة فوق المدفأة دقة تعلن الساعة العاشرة، ما جعل أوجيني تقف قائلة: «لم يكن لدي فكرة... لقد أمضيت وقتاً طويلاً وما كان لي ان افعل هذا. أرجو ألاّ اكون عطلتك عن القيام بأمر ما.»

بدا عليها الارتباك، ووقف هو أيضاً إنما متمهلاً وهو يقول: «كانت أمسية ممتعة وأنا شاكر لك جداً بقاءك لتؤنسي

وحدتي. وصدقيني لم يكن عندي ما أقوم به، وساعيدك بسيارتي إلى المستشفى.»

• • •

كانت تستعد للنوم عندما دعيت للإجابة على مكالمة هاتفية باسمها.

كان الدكتور ريجنما تير ساليس الذي كان يقول: «اننا سنسافر إلى البوسنة في الساعة الثامنة من صباح الغد.» كانت لهجته وكأنه يطلب منها أن تستقل الباص لكي تذهب إلى مكان معين في لندن. «ستتسلمين الملابس التي سترتدينها هناك في الطائرة. سأجري عمليتين لولدين اصابتهما بالغة بحيث لا يستطيعان السفر بالطائرة من دون جراحة. وهما مصابان بشظايا في القلب، وسيكون معنا راف فان غروت وكذلك أحد التقنيين، انني اريد كل أدواتي وكذلك الامصال وباقي المعدات. فهل لك ان تهتمي بكل ذلك؟ ستأتي إليك السيارة في الساعة السابعة من صباح الغد.» واقفل الهاتف تاركاً إياها فاغرة الفم، وبعد لحظة عادت إلى غرفتها لتعود فترتدي ثياب التمريض على كل حال، فهذا هو سبب وجودها هنا.

كانت الممرضة كورسما ما زالت في العمل تسلم المسؤولية إلى الممرضة الليلية، فاخبرتهما أوجيني بالأمر، وهي تستمع، بإذعان، إلى ما سبق وذكرت نفسها به، ألا وهو ان هذا هو السبب في وجودها هنا، ومن ثم ابتدأت في جمع ما تريد أخذه من معدات، وقد استغرق هذا بعض الوقت إلى ان اقبل راف فان غروت طبيب البنج الذي اخبرها، ببشاشة، بأنه سيكون عليهم العمل مع المرضى

هناك في أجواء غير صالحة، معقباً وهو ما زال على بشاشته، «وقد يطلق علينا الرصاص كذلك.»

أنهت ماكانت تقوم به، واطمأنت إلى ان كل المعدات جاهزة بما فيها الأمصال والأنابيب، والإبر والخيوط الجراحية، وكذلك لم تنس ان تضم إلى كل ذلك علب الحليب والقهوة. لم تكن تشك في انهم سيقدمون اليهم الطعام هناك، ولكن الدكتور ريجنما من غير المحتمل ان يتوقف عن العمل ليذهب ليتناول الطعام وذلك بعد أن يبدأ في إجراء العملية.

عندما استحمت وأوت إلى فراشها، كان الوقت قد تأخر. وانتشر خبر سفرها إلى البوسنة بين الموظفين ماجعل زميلاتها يأتين ليسألنها عن ذلك. وسألتها آخر من خرج منهن: «هل أنت خائفة يا أوجيني؟»

أجابت أوجيني: «لم اجد وقتاً بعد للشعور بالخوف، ولكنني اظن ان الذعر سيتملكني فيما بعد.»

وعند الساعة السادسة والنصف صباحاً، كانت قد استيقظت وارتدت ملابسها ثم جلست لتناول طعام الإفطار في غرفة الطعام التي كانت ماتزال خالية. وكانت ملأت حقيبة كتفها بمعداتها الشخصية من منشفة ومعجون اسنان وصابون وفرشاة للشعر وشامبو وجواز السفر ومبلغ صغير من النقود كان معها. ثم خرجت تنتظر في المدخل، حياها بمرح، ولكنه نظر إلى الحقيبة في كتفها بشيء من الشك، ثم قال: «سنمضي هناك عدة أيام.»

«نعم، توقعت هذا، وقد أحضرت معي كل ما احتاجه.»

ألقى بالحقيبة في المقعد الخلفي. وجلس هو بجانبها على الفور وقد بدا في بنطاله البسيط وقميصه المفتوح العنق نموذجاً

للرجل المتفرغ من العمل، وقالت هي بحدة: «أرجو أن تجد وقتاً تخبرني فيه إلى أين نحن ذاهبان وكيف وإلى متى؟»

«لا استغرب شعورك هذا بالغيظ. حاولي ان تنفسي مشاعرك علي إذا كان هذا يريحك.» وألقى عليها نظرة جانبية سريعة: «اننا سنستقل طائرة حربية من مطار خارج المدينة. وستتسلمين ملابس الميدان لترتديها وسنغير ملابسنا قبل الرحيل. هناك ولدان، كما سبق واخبرتك، وساجري لهما العملية إذا كان ذلك بالإمكان. وقد يستوجب ذلك بقاءنا يوماً أو اثنين، وإلى أن يصبح سفرهما مأموناً صحياً، يمكننا نحن السفر.»

كان يقود السيارة خلال الشوارع وقد بدا عليه وكأنه ذاهب إلى نزهة. «وعندما نستقر في الطائرة، سأراجع معك تلك الحالتين، كما ان فان غروت ووليم سيلتقيان بنا في المطار.»

كانا الآن في الريف خارج المدينة، وقد احاطت بهما الحقول الخضراء، فحدثت نفسها انها ستكون سعيدة لو رأت ذلك مرة أخرى من بعد هذه الرحلة إلى البوسنة.

سألها: «هل كنت قد قررت شيئاً بالنسبة إلى العطلة الأسبوعية؟»

أجابت: «كلا، فقد فكرت في انني قد أخرج لاكتشاف النواحي، لفترة قليلة.» ثم اضافت بعد برهة: «لقد اتصلت بامي الليلة الماضية ولكنني لم اخبرها عن وجهة سفرنا.»

«هذه منتهى العقلانية منك. لقد تحدثت أنا إلى أبيك، وقد وافقني على انه لا ضرورة لجعل أمك تعلم إلى أين سنذهب. يمكنك ان تعودي للاتصال بها بعد عودتنا.»

«آه، حسناً، اشكرك، ألم يكن قلقاً عليّ؟»

«لقد اخبرته انك ستكونين في أيدٍ أمينة، يا أوجيني.»

«شكراً... اظن ان خطيبتك سافيرا قلقة...» لم تعرف ما الذي جعلها تقول ذلك، وانتظرت جوابه شاعرة بالضيق.

«كلا، كلا، انها غير قلقة. لقد انزعجت قليلاً فقط لأننا كنا مدعوين للنزول ضيوفاً على بعض الأصدقاء في ليمبورغ لقضاء عطلة الأسبوع، ولكنها ستذهب بمفردها.»

وجعلها شيء في صوته، تقول بسرعة: «من المحتمل انها تتفهم الأمر... وهي عندما تصبح زوجتك ستعتاد على غيابك عن البيت.» وتابعت بتأمل، متلهفة لأن تبدي عطفها دون فضول: «ان زوجات الأطباء... اعني انك تتغيب كثيراً، أليس كذلك؟»

فقال برقة: «هذا صحيح... ولكن لا حاجة بك للقلق عليّ يا أوجيني.»

«ولكنني لست قلقة أبداً عليك، يا سيدي؟ ما الذي يجعلني أقلق؟»

«هذا سؤال هام.»

وأبطأ بالسيارة، ثم توقف عند بوابة مخفورة، حيث تحدث إلى الحارس ثم تابع سيره. كان هناك عدة مبانٍ، باحة مخصصة للطائرات مابدا انه برج مراقبة، هذا إلى صرح شامخ أو اكثر، مبني من القرميد ربما كانت مكاتب. وتوقف الدكتور ريجنما بجانب هذه ثم خرج من السيارة واستدار يفتح لها بابها: «ان فان غروت ووليم موجودان هنا. ادخلي انت من ذلك الباب الأول حيث ستجدين من يخبرك بما عليك ان تقومي به.»

كانت كمن في حلم، ولكن بما انها تحلم، فإن عليها ان تتبع التعليمات التي تلقى عليها دون اعتراض. ودخلت من الباب لتبادرها فتاة جميلة بقولها: «مرحباً، انني ساين. ان ملابسك هنا وأمامك عشر دقائق فقط.»

تبعتها أوجيني إلى غرفة صغيرة لا تحوي سوى منضدة

وكرسيين، ثم قالت ساين: «دعي اشياءك هنا. وآمل ان تكون الملابس ملائمة. لقد حاولت كل ما بإمكاني...»

ارتدت أوجيني النبطال الفضفاض والقميص. اعطتها ساين خوذة زرقاء وحقيبة، وهي تقول: «سيقدمون اليكم قهوة في الطائرة.»

«كم ساعة ستستمر الرحلة؟»

«آه، عدة ساعات. ان لديك رجلاً رائعاً لتتحدثي معه، وهكذا لن تنتبهي إلى الوقت. يا ليتني كنت مكانك.»

فقالت أوجيني: «انه سيتزوج من امرأة شابة جميلة جداً. وعلى كل حال، اظننا سنتحدث في شؤون العمل فقط.» ورأت على وجه ساين نظرة حائرة فتابعت: «وذلك عن العمليات التي سيجريها هناك.»

«هذا مؤسف، اظن ان عليك ان تذهبي الآن. اتمنى لكما حظاً سعيداً.»

كان في الخارج سيارة جيب في انتظارها، وقد سبقها إليها الدكتور ريجنما والدكتور فان غروت والدكتور ويم. هذا إلى السائق، الذي قاد السيارة، وسار إلى ابعد نقطة في المطار حيث كانت هناك طائرة قد ابتدأ محركها في الدوران.

قيل لها: «اجلسي هنا.» فجلست شاكرة، وقدم إليها الطيار ومساعده نفسيهما بينما كان الآخرون يشرفون على تحميل الأمتعة: «انا جاك وهذا ايفيرت. من سرورنا أن تكوني في طيارتنا يا آنسة، لا يحدث كثيراً ان تسافر معنا سيدات رائعات الجمال مثلك. انك تسافرين كثيراً، أليس كذلك؟»

«كان علينا أن نسافر إلى ماديرا منذ نحو اسبوعين. ان السفر لا يهمني كثيراً.»

فقال جاك يطمئنها: «سنطير بكل حذر، امتصي قطعة حلوى عندما نشرع في الاقلاع، وبعد ذلك استسلمي للنوم، وان كان هذا لا يعني ان ذلك واجب عليك.»

فضحكت وهي ترى المودة مرتسمة على ملامحه، وكان الدكتور ريجنما يصعد إلى الطائرة، فنظر إليها بحدة، فقد كان ضحكتها حلوة تماماً.

إنها تحبه... وهو حب دون فائدة ولن يصل إلى نتيجة، وبعد اسابيع قليلة ستصل بديلتها وستعود هي إلى انكلترا ولن تراه بعد ذلك أبداً. وما لبثت احلام اليقظة المبهمة ان ابتدأت تحوم حول رأسها ما جعلها تستسلم إلى النوم على الفور. وكان ويم هو الذي ايقظها محضراً لها طبق شطائر وفنجان قهوة، وهو يقول لها: «خذي، كلي واشربي، اننا سنصل بعد فترة قصيرة. هل نمت جيداً؟»

شكرته ونظرت في ساعتها، لقد نامت جيداً في الواقع، حوالي الساعتين، شربت القهوة وابتدأت تأكل الشطائر وهي تنظر من النافذة، كانوا الآن فوق الأرض، ولكن لم يكن لديها فكرة عن أية أرض هي، فقد بدت مسطحة ومغطاة بالغابات.

كان الدكتور ريجنما عائداً إلى مقعده وهو يحمل في يده شطيرة ويسألها: «هل انت بخير؟ هذا حسن. إذا استطلت بعنقك، فستظفرين بلمحة خاطفة من البحر الأدرياتيك. لقد طرنا فوق المانيا والنمسا، وقد وصلنا تقريباً. انها بلاد جبلية، ولكننا سننزل إلى الأرض بعد نصف ساعة أو نحوها كما يقول جاك، وسنذهب إلى المستشفى مباشرة ونرى الجراحين، وربما اجرينا العملية في آخر هذا النهار.»

ونهض واقفاً: «وسيكون من الأفضل لو وقفت معي أثناء تبادلنا الحديث.»

«حسناً جداً، يا دكتور ريجنما.»

«اظنها فكرة صائبة لو انك تخاطبينني باسمي الأول ايديريك، الا توافقين على هذا؟»

«حسناً جداً يا دكتور... ايديريك.»

فشعرت بيده على كتفها، عريضة مطمئنة، قبل ان يعود إلى الآخرين.

ما لبثت الطائرة ان حطت بهم، وصعدت هي مع الآخرين في سيارة جيب إلى مباني المطار وبعد توقف قصير، تابعوا سيرهم في طريق ضيق مليء بالحفر، كانت الجبال تمتد في جانب منه وفي الجانب الآخر كانت هناك حقول وبعض البيوت القروية المهدمة، وكانت السيارة تسير بهم خلال المنطقة المحيطة بالمدينة عندما انفجرت قنبلة على بعد عدة مئات من الياردات منهم فانطلقت صرخة فزع من أوجيني.

فمال الدكتور ريجنما نحوها قائلاً: «هناك وقف لاطلاق النار. ولا بد ان هذه قد اطلقت خطأ.»

فضحك الجميع بمن فيهم هي نفسها وذلك بشيء من التردد. ما كان لها ان تخاف، فإيديريك هنا، قريباً منها.

الفصل السابع

كان الوقت قد تأخر عندما ذهبت أوجيني إلى الغرفة التي اعطيت لها في المستشفى. كانت متعبة، فقد كان يوماً مجهداً لن تنساه أبداً، ولولا وجود ايديريك لانفجرت باكية وبقيت تبكي طوال النهار. إذ من الواضح انه لم يكن يتوقع منها عملاً كهذا، فهما هنا لتأدية عمل لا مجال فيه للمشاعر الشخصية.

كان النهار في آخره عندما ابتدأ الدكتور ريجنما يجري العملية. وقد استغرق منه اخراج الشظية الدقيقة التي كانت قد استقرت على بعد شعرة من قلب الطفل، استغرق منه ذلك وقتاً طويلاً، ولكنه قام بذلك بكل نجاح. وسيشفى الطفل في أقرب وقت ممكن، فيتمكن من السفر بالطائرة إلى مستشفى آخر بأمان، أما الطفل الآخر فقد كانت حالته اكثر خطورة، فقد كان ثمة شظية قنبلة في القلب نفسه، وسيكونون بحاجة إلى جهاز القلب والرئتين، كما أن حالة الطفل الصحية لم تكن تسمح بإجراء عملية له قبل اثنتي عشرة ساعة على الأقل، وهذا يعني ان امامهم يوماً شاقاً آخر. وهكذا جمعت نفسها على الفرشة الصلبة واستغرقت في النوم.

كانت قد توقعت ان تستيقظ باكراً، ولكن ليس في الرابعة صباحاً، اخذت ممرضة تهزها لتستيقظ قائلة: «يجب ان تذهبي إلى غرفة العمليات... هناك رجل جريح. تعالي حالاً، وساكون انا هناك أيضاً وكذلك اثنان من جراحينا.»

إرتدت أوجيني بسرعة بنطلوناً وقميصاً، ورفعت شعرها رابطة إياه فوق رأسها، وأسرعت خلال الممرات لتجد ايديريك ودكتور غروت ووليم هناك ومعهم جراحان والممرضات.

استدار إليها الدكتور ريجنما حال دخولها: «اصابة في الشريان التاجي، سأحاول ان أخيطه، وإذا لم استطع سيكون هنا خلال عشر دقائق أو نحو ذلك، ليس لدينا وقت نضيعه.» ابتعد بينما ابتدأت هي عملها مع الممرضات. كانت غرفة العمليات جاهزة ولكن كانت هناك أدواته الخاصة، التي سبق تعقيمها، لكي توضع على المنضدة حالما تنتهي هي من تجهيز نفسها.

كان المريض شاباً غائباً عن الوعي، شاحب اللون. وساور أوجيني الرجاء في أنهم ادركوه في الوقت المناسب...

أخذ الدكتور ريجنما يعمل بسرعة وقد استغرق في مهمته بشكل كامل، ومالبثت أوجيني ان اطلقت تنهيدة ارتياح عندما قال أخيراً: «اظن انه سيعيش.» وقال مخاطباً الجراحين الواقفين معه. «انه شاب وقوي.»

حمل المريض إلى خارج الغرفة وكذلك غادر الرجال بينما بقيت أوجيني مع زميلاتها لإعادة تنظيم المكان مرة أخرى وترك كل شيء جاهزاً.

عادت إلى غرفتها بعد ذلك، لتغسل وجهها ويديها وتنظم شعرها، وعند عودتها إلى غرفة العمليات اخبروها أن الدكتور ريجنما سيجري عملية بعد الظهر، وإلى ان يحين ذلك، عليها ان تعاون بقية الممرضات في الأقسام. وكان

هنالك كثير من العمل، فأخذت تغير الضمادات وتنظم الغرف وتتبادل الابتسامات مع المرضى، حيث انها لم تكن تفهمهم او يفهمونها.

كان طعام الغداء عبارة عن حساء، وجاء ايديريك ليجلس بجانبها عدة دقائق قائلاً لها: «سأجري عملية ذلك الطفل بعد ساعة. هل كنت مشغولة هذا الصباح؟»

وضعت ملعقتها وهي تقول متسائلة: «نعم، كان الأمر بمثابة كابوس... أليس كذلك؟»

«الكابوس لا يكون كابوساً وانت فيه، يا أوجيني.»

اخذا يحدّق الواحد منهما إلى الآخر. كانت عيناه مركزتين على وجهها، بينما عيناها تتفحصان وجهه وقد قطبت جبينها بحيرة، وهي تقول: «أوه...» ثم تابعت محاولة ان تحول عينيها عنه. «الأفضل ان اذهب وأبدأ العمل...»

نهض معها عائداً إلى ويم ودكتور فان غروت بينما ذهبت هي لعملها المعتاد في اعداد غرفة العمليات، محاولة ان تنسى كلماته تلك. ما الذي قصد إليه بالضبط، وكانت لا تنفك تتساءل عن ذلك مرة بعد أخرى.

لم يكن لديها وقت للمضي في التساؤل، فقد كانت العملية معقدة وتأخذ وقتاً طويلاً خصوصاً لنقصان الكثير من المعدات. ولكن الدكتور ريجنما بقي مستمراً، على كل حال، بكل هدوء متجاهلاً نقص هذا الجهاز أوذاك، مستمراً في العمل كيفما اقتضى الحال، فالطفل يجب ان يعيش، وعندما حمل الطفل من غرفة العمليات، ذهب هو معه وكذلك الجراحان اللذان ساعداه في العملية وذلك للاشراف على

العناية بمريضه الصغير بعد العملية، تاركاً أوجيني تقوم، مع بقية الممرضات بالعمل المعتاد في غرفة العمليات من تنظيم وتنظيف ليتركنها جاهزة لأية عملية قد تأتي بعد ذلك، ثم يخرجن جميعاً لتناول العشاء المكون من اللحم المطبوخ، وتناول القهوة. كانت تقف في المدخل متسائلة في أي اتجاه تسير، عندما اقترب منها الدكتور ريجنما وهو يقول: «لا تسيري في ذلك الإتجاه. هناك حديقة خلف المستشفى محمية من وصول الرصاص إليها تقريباً.» ثم اعادها إلى الداخل حيث سارا خلال ممرات متشابكة إلى حيث كان هناك باب جانبي فتحه ونفذا إلى حديقة تعالت فيها النباتات المختلفة، وكانت هناك أزهار تكافح في سبيل الحياة بين مختلف الأعشاب الطفيلية، كما ان النسيم كان رقيقاً.

اخذا يتلمسان طريقهما حتى وصلا إلى جدار متداع، كان المنظر من هناك رائعاً، وقالت أوجيني: «ما أروع هذا الجمال، ثم هناك رائحة حلوة تماماً.»

فقال: «انه الصعتر. اعتقد اننا سنعود إلى الوطن بعد يومين، يا أوجيني.»

«كيف؟»

«بالطريقة التي جئنا بها، وسناخذ معنا بعض المرضى.» ادارها لتواجهه، ثم تابع مبتسماً لها: «شكراً يا أوجيني.» ثم اضاف: «يا حبي.»

عندذاك، توقفت عن التنفس برهة، قالت بعدها بسرعة: «أليس من الأفضل ان نعود؟»

«طبعاً، فقد كان يوماً شاقاً، ثم ان هناك عدة عمليات للغد، وحيث اننا احضرنا معنا بعض الامدادات، فهناك

الكثير يمكننا القيام به. انني ساساعد هنا، وأنا واثق من انك انت أيضاً ستجدين ما تقومين به.»

لا بد انها كانت تحلم، لقد عادت إلى المستشفى معه ثم حيته تحية المساء، حتى ولو قال تلك الكلمة فعلاً، فلا بد انه قد ندم عليها الآن.

لماذا قال لها انها حبه؟ اخذت تتساءل عن ذلك وهي تتهيأ للنوم، أتراه قد امتلأ بالشوق إلى سافيرا إلى حد جعله ينسى لحظة ان من كان يتحدث إليها هي اوجيني وليست سافيرا؟ وبدا لها هذا ممكناً، وساورها الرجاء في ان الفتاة تحبه بقدر ما يحبها...

لم تره كثيراً بعد ذلك إلى ان حان وقت الرحيل، وأثناء رحلة العودة، كان هناك المريضان وكان يتعين عليها الاهتمام بهما وبراحتهما قدر الامكان. وبدت لها الرحلة اطول مما هي عليه، كما ان ايديريك كان يتجنبها...

أخذ نقل المريضين إلى سيارة الاسعاف التي كانت بالانتظار، وقتاً طويلاً، خصوصاً الطفل الصغير الذي كانت تحمله أمه الشابة والتي كان يتملكها الارتباك. وقد قبل لأوجيني ان تذهب معها، وتمنى لها الدكتور ويم والدكتور فان غروت وقتاً حسناً، ولكن الدكتور ريجنما قال لها بعدم اهتمام: «إلى اللقاء فيما بعد، يا أوجيني.»

سارت بهم سيارة الاسعاف، ليس إلى المستشفى الذي تعمل هي فيه في غرونينجن، وإنما إلى مستشفى اصغر في الناحية الأخرى من المدينة، وبعد اكثر من ساعتين، كانت تقف امام المستشفى الذي كانت تسكن فيه. كان عليها ان تتوجه إلى رئيسة الممرضات حال وصولها، والتي

اخبرتها بعد التحية، ان عليها ان تأخذ يومين إجازة قائلة: «ان الدكتور ريجنما تير ساليس لن يجري أية عملية قبل يومين، وقد اخبرني ان عملك هناك كان مجهداً تماماً، فاذهبي واستمتعي بهذه العطلة، يا آنسة سبنسر.» وحاولت اوجيني جاهدة، عدم التفكير في ايديريك ولكن ذلك كان مستحيلاً، فكانت تتساءل عما يفعله الآن، وهل تراه يخطط مع سافيرا لحفلة الزفاف؟

* * *

كان الدكتور ريجنما مع سافيرا فعلاً، ولكن موضوع الزفاف كان آخر ما يمكن ان يدور الحديث حوله. كانت سافيرا قد وصلت في سيارتها الصغيرة الأنيقة، متحدية القانون الذي يقول ان السيارات الضرورية فقط بإمكانها ان تسير في المدينة، لتدخل، بعد ذلك، المنزل بكل مباهاة وكأنها صاحبته، وها هي ذي الآن تجلس امامه، صورة تبعث على السرور في ثوب حريري زاهي اللون، وشعرها قد صفف بشكل فني لا يجيده سوى حلاق ماهر كما كانت زينة وجهها لا تشوبها شائبة، وكانت تقول بنكد: «مادام ليس لديك عمل هذا النهار، فلماذا لا يمكنك مرافقتي إلى دنهاغ؟ كنت اظن انك ستكون مسروراً بالمجيء معي بعد غيابك الممل ذاك. لا استطيع ان اتصور السبب الذي جعلك تذهب فلا بد ان يكون هناك غيرك من الجراحين.»

حدقت في وجهه الساخر، ثم سألته: «هل اخذت تلك الفتاة معك؟» وعندما أومأ برأسه اضافت تقول: «لا استطيع التفكير في سبب هذا... فهناك عشرات من الممرضات بإمكانهن القيام بعملها.»

وعندما لم يجب، سألته: «متى ستحضر بديلتها؟»

«خلال الأسبوع القادم أو نحوه. انني آسف لعدم تمكني من القدوم معك، يا سافيرا... فإن لديّ الكثير من المشاغل رغم انني لست في المستشفى.» وزمجر الكلب باتش الذي كان جالساً عند قدمي سيده، فقالت سافيرا بضيق: «آه، أرجوك، تخلص من ذلك الكلب، انني لا اطيقه.»

قال الدكتور ريجنما بهدوء: «انك تعلمين كما اعلم انا، انني لن اتخلص من باتش أبداً. قدمي أسفي إلى فان هوفز من فضلك، فمن المحتمل انهم استعدوا ليوم ممتع.»

نهضت سافيرا وقالت: «انني اتساءل احياناً عما اذا كنت اريد حقاً الزواج منك، فأنت لا تستمتع بالحياة إلا قليلاً.»

بدا عليه وكأنه سينطق بجواب، ولكنه لم يقل شيئاً، وإنما ودعها فقط متمنياً لها يوماً ممتعاً.

عندما ذهبت، استقل سيارته متجهاً إلى المستشفى وباتش بجانبه، ولم يكن به حاجة للذهاب إلى هناك، في الواقع. ولكن، لا بأس، وذهب لرؤية مرضاه لمدة قصيرة، ثم تناول فنجان قهوة مع الممرضة كورسما، ثم ذهب متمهلاً إلى القاعة الأمامية حيث سأل البواب: «ألم تخرج الممرضة سبنسر بعد؟»

فأجاب هذا: «منذ نصف ساعة، فقد أخبرتها كيف تجد طريقها إلى المتحف. وقد أرادت ان تعلم أيضاً من أين تستأجر دراجة نارية، فقلت لها ان تذهب إلى ذلك المكان الذي بجانب المحطة.»

فقال الدكتور ريجنما متكلفاً شرود الذهن: «آه، نعم.» ثم عاد إلى سيارته وهو يخاطب الكلب باتش: «اترغب في نزهة

جميلة في الغابة؟ اننا أنا وأنت، بحاجة إلى شيء من الترفيه.»

كان المتحف يكاد يكون فارغاً من الرواد، وهكذا وجد ايديريك أوجيني بسهولة تامة حيث كانت جالسة امام بعض اللوحات الفنية الهولندية الرائعة، كانت تبدو رائعة الجمال في جلستها الثابتة وثوبها القطني، ويداها في حجرها وقد بدا عليها الاستغراق في جمال اللوحة التي أمامها.

جلس بجانبها وهو يقول متجاهلاً شهقة الدهشة التي صدرت عنها: «ان هذا النهار اجمل كثيراً من أن يمضيه الشخص في متحف وباتش يتوق إلى الطواف في أرجاء الريف، هل تأتين معنا؟»

استردت أنفاسها واستعادت تمالك نفسها، فأجابت: «هذا لطف بالغ منك، ولكنني سعيدة جداً هنا في الحقيقة.»

فقال: «لا تنطقي بهذا الكلام الفارغ.» أوقفها على قدميها ثم قادها نحو المدخل، وهناك توقفت تسأله بعنف: «أين خطيبتك سافيرا؟»

«ذهبت إلى دينهاغ حيث هناك حفلة غداء ثم عرض أزياء.»

«حسناً، وعلى كل حال لا اظن انه ينبغي ان آتي معك.» ونظرت بعيداً وهي تتابع: «لو كنت انا سافيرا، لاستأت من ذلك.»

«انك، على كل حال، لست سافيرا، يا أوجيني.»

نظرت إليه قائلة: «نعم؟»

«اتثقين بي؟»

«طبعاً.»

«هذا حسن، ان سيارتي عبر الشارع هذا.» حياها باتش مسروراً، منتقلاً إلى المقعد الخلفي. وجلست هي في مقعدها شاعرة وكأنها قد فقدت سيطرتها على الاحداث، بينما جلس الدكتور ريجنما بجانبها وهو يقول: «هنالك مدينة جميلة تدعى تيرآبيل ليست بعيدة من هنا، وفيها غابة ونزهات جميلة على الأقدام ان باتش بحاجة إلى تمرين رجليه وكذلك انا. واظن انك قد تستمتعين بهذا.»

كانت تيرآبيل تبعد حوالي ستة وثلاثين ميلاً من غرونينجين ولكن ايديريك لم يسلك الطرق الرئيسية، بل تحول إلى الطرق الريفية دون ان يبتعد عن القنال متوقفاً عند مقهى ليتناولا القهوة.

قالت بلهجة قصدت من ورائها القيام بحديث جاد مهذب: «ان هذه المنطقة الريفية بالغة الجمال.»

فقال بلطف: «انها رائعة، وهناك عدة قرى تماثلها جمالاً... سنتناول الغداء في واحدة منها.»

استقلا السيارة مرة أخرى متوجهين شمالاً عدة اميال إلى بورتانج وهي لا تبعد سوى ميل أو ميلين عن الحدود الألمانية، حيث كان يوجد نزل صغير جميل من طراز القرن السابع عشر حيث تناولا الغداء، وحيث ان الجو كان حاراً فقد تناولا العصير البارد تلته القهوة بعد الغداء.

كانا جالسين خارج النزل حيث كان حولهما قليل من الزبائن، وقد رقد باتش بينهما بعد ان شبع من طعامه الذي قدم إليه.

سألته أوجيني فجأة: «اتظنهما سيعيشان؟»

فأدرك على الفور ما تعنيه: «نعم، اعتقد ذلك، فهما الآن يتلقيان العلاج المناسب، سأزودك باخبارهما على الدوام.»

«انني أحب ان اعرف ذلك، فهو شيء سأتذكره على الدوام.»

نظر إليها قائلاً: «طبعاً، إن بديلتك ستعود إلي قريباً. أظنك ستكونين مسرورة بالعودة إلى انكلترا. ولكنني سررت جداً بوجودي هنا... هذا إلى انني ذهبت إلى ماديرا، ثم هذه الرحلة الأخيرة...»

قالت متظاهرة بالحماس: «آه! طبعاً.»

«من المحتمل ان تسافري مرة أخرى قبل رحيلك. ان لدي مريضين في الاسبوع القادم في غرونينجن، وبهذا لن ينتابك الكسل.» وابتسم لها: «اذا لم تكوني متعبة، فسنتابع طريقنا شمالاً... هناك قرية جميلة تدعى وورفام قامت بيوتها على الروابي فوق مستوى المياه.»

تابع سيره متبعاً طريق الساحل إلى حيث القرية وكان يجيب على اسئلتها بصبر إلى ان اعلن اخيراً ان وقت العودة قد حان.

كانت غرونينجن تبعد الآن أربعة عشرة ميلاً فقط، وعندما دخلا مشارف المدينة، قالت: «كان هذا لطفاً كبيراً منك يا دكتور ريجنما...»

فقاطعها قائلاً: «ايديريك.»

«حسناً يا ايديريك، انما فقط حين لا نكون في المستشفى. لقد استمتعت بيوم جميل.»

«هذا حسن.» وانتظرت منه ان يقول انه هو أيضاً استمتع بذلك، ولكنه لم يفعل. سارا خلال الشوارع غير المزدحمة ثم

وقف أمام بيته: «شاي؟» وخرج من السيارة قبل ان تجيب، وفتح بابها لها.

«اظن عليّ ان اعود إلى المستشفى، شكراً لك على كل حال...»

«لماذا؟»

أجابت باستياء: «لماذا تلقي مثل هذه الاسئلة الغريبة؟ انا... انا فقط... اظن ان عليّ ان اعود الآن.»

قال لها: «اسمحي لقلبك، ولو مرة واحدة، ان يتغلب على حذرك من العواقب. ما احسن ما قررته من عدم الزواج بالاستاذ جوشا واطس، فهو كان سيمضي بقية حياته فاشلاً معك وذلك بشكل يدعو إلى الرثاء.»

قالت: «ليس جميلاً منك ان تقول شيئاً وقحاً كهذا... ان المستشارين المشهورين يجب ان لا يكونوا وقحين.»

فضحك قائلاً: «ان المستشارين المشهورين مثل غيرهم من الرجال... فهم يحبون ويكرهون، ومثلهم يفقدون اعصابهم احياناً، وينسون اشياء، ويعبرون عما يفكرون فيه...»

فقالت بحدة: «يا لها من مناقشة حمقاء تدور على الرصيف.»

«هذا صحيح. فدعينا ندخل المنزل قبل ان افعل شيئاً اكثر حماقة.» كان صوته رقيقاً ما بدا لها من الحكمة ان تقوم بذلك. وعندما يصبحان في داخل المنزل، كما اخذت تحدث نفسها، فستلقي بعض الكلمات المناسبة عن هذا النهار، ثم تلقي عليه تحية الوداع متوخية البرود في لهجتها ولو انها ستجد من الصعب عليها ذلك حين تكون معه، ولكن خطتها

الحكيمة هذه سرعان ما تبددت في الجهات الأربع عندما دخلا غرفة الاستقبال واستدارت سافيرا عن النافذة لتواجههما. كلمته باللغة الهولندية متجاهلة أوجيني: «لماذا جاءت إلى هنا، وما الذي كنتما تتحدثان عنه على الرصيف؟»

ولم تظهر أية دهشة على وجه ايديريك الوادع هذا إذا كان حقاً شعر بالدهشة، وهو يجيب: «كنت انا وأوجيني والكلب باتش نتمشى في الريف... كان يوماً جميلاً. هل استمتعت بوقتك مع آل فان هوفز؟»

فقالت مصرة على التحدث بالهولندية: «لقد أخبرتني بأنك مشغول، ولكن ما أن ادرت ظهري حتى خرجت مع هذه الفتاة.»

فقال بهدوء ولكن بصوت كالثلج برودة: «هل لنا ان نتابع الحديث بالانكليزية؟ لعلك نسيت ان أوجيني لا تفهم اللغة الهولندية.»

ألقت نظرة على أوجيني ثم قالت لها: «حسناً، ربما لا يستحق الأمر هذا، أليس كذلك؟ فأنت سترحلين في خلال أيام قليلة.»

كانت أوجيني تشعر بالذعر إذ تقف هناك، عالمة بانهما يتحدثان عنها دون ان تفهم سوى كلمة من هنا أو هناك. وعندما وجهت سافيرا إليها الحديث، استطاعت عندذاك، النطق فقالت مظهرة السرور بينما كانت تغلي في داخلها: «نعم... ما أسرع ما مرت الأيام. هل لديك مانع في أن اعود الآن إلى المستشفى؟ ان لدي موعداً هذا المساء.»

اطلقت هذه الكذبة البيضاء برباطة جأش جعلت الدكتور

ريجنما يلقي عليها نظرة سريعة، انما كل ما قاله هو: «سأوصلك إلى المستشفى.»

فقالت أوجيني بمنتهى الحلاوة: «اشكرك.» كانت ابتسامتها رقيقة، ثم استدارت تبتسم لسافيرا، قائلة: «أرجو ان نتقابل مرة أخرى قبل سفري.» وبقيت تثرثر مرحة، أثناء توصيله لها بسيارته إلى المستشفى، بذلك النوع من الحديث الذي كانت تحسنه، الجو، حالة المواسم، الحدائق والعناية بها، وكل هذا كان هو يجيب عليه مهمهماً بذهن شارد.

وعند المستشفى، خرج من السيارة واستدار يفتح لها بابها، وعندما نزلت قال لها: «انني اعتذر عن سافيرا، فهي لا تعني دوماً ما تقوله. انني آسف لأنها ابدت ذلك الاستياء...»

فقالت أوجيني بمرح: «لا تهتم لذلك. وأرجو ان تمضيا مساءً سعيداً معاً، وشكراً مرة أخرى لهذا النهار الممتع جداً. انني ساعود إلى انكلترا ترافقني بعض الذكريات السعيدة عن هولندا.»

«هل انت مسرورة لرحيلك؟»

أجابت متكلفة الابتسام مرة أخرى: «نعم. مع السلامة يا دكتور ريجنما تير ساليس.»

واندفعت داخلة إلى المستشفى، آملة ان تكون تركت لديه انطباعاً بأنها ذاهبة إلى مكان ما وان ليس لديها وقتاً تضيعه.

وفي غرفتها، جلست على سريرها تفكر. ان سافيرا امرأة فظيعة وايديريك لن يكون سعيداً معها وان كان يحبها،

انما طبعاً، لا بد انها تبدو مختلفة، تماماً عندما يكونان وحدهما... وهكذا قررت أوجيني الاّ تفكر كثيراً في هذا الموضوع، فقد أصبح واضحاً الآن انها ستعود قريباً إلى انكلترا، صحيح انه لم يقل شيئاً محدداً عن ذلك، ولكن من الواضح ان سافيرا تعلم شيئاً عن هذا الموضوع، وعليها هي ان تتقبل الحقيقة، وهو انه يعتبرها زميلة عمل له، وبما انها في بلد اجنبي فهي بحاجة إلى من يرعاها. انما لماذا قال لها يا حبي؟ ولكن كان ذلك مرة واحدة وخلال احداث عصيبة... وقد اعتبرت هي ذلك بأنه كان ممتلئاً شوقاً إلى سافيرا حيث قال ذلك.

نزلت لتناول العشاء، وبعد ذلك جلست مع زميلاتها في غرفة الجلوس حيث تشرب القهوة وتراقب التلفزيون إلى ان يحين وقت النوم.

استيقظت في اليوم التالي باكراً، وبإرشاد من زميلة لها، خرجت إلى حيث استأجرت دراجة نارية ذهبت به إلى دينهام حيث اخبروها انه يوجد هناك منزل قديم يستحق المشاهدة رغم ان من المستحيل الدخول إليه.

كانت نزهة ممتعة، حيث تناولت غداءها في مقهى قروي لتعود بعد ذلك إلى غرونينجن سالكة طريق القنال إلى المستشفى. وهناك طلبت منها بعض زميلاتها الذهاب معهن إلى حفلة موسيقية مسائية فقبلت ذلك بسرور. وعندما انتهت ذهبن إلى مطعم تناولن فيه عشاءً مكوناً من سمك مدخن على خبز وزبدة ثم حلوى مقلية مع شراب السكر تبعتها اكواب القهوة، وبينما كانت أوجيني تأكل، كانت تتساءل عما قد يكون ايديريك وسافيرا يأكلان الآن، والذي

لا بد ان يكون شيئاً لذيذاً... ولو رأت سافيرا نوع الطعام الذي امامهن هذا لشمخت بانفها احتقاراً...

* * *

لم تر أوجيني الدكتور ريجنما مرة أخرى، قبل يوم الاربعاء التالي وذلك في غرفة العمليات فقط حيث ألقى عليها تحية الصباح بادب ثم أدلى بعدة ملاحظات بالنسبة إلى المريض الذي سيجري له العملية، بينما لم يشر إلى ذلك النهار الذي امضياه معاً، ولم تكن هي تتوقع منه ذلك، على كل حال.

غادر غرفة العمليات حال انتهائه من العملية، بينما انكبت هي وبقية الممرضات اللاتي عملن معها، على إعادة تنظيم الغرفة واعدادها لعملية قادمة مرة اخرى، وتحدثن أثناء ذلك، عن ساعات فراغهن وعند ذلك علمت أوجيني ان بديلتها ستصل بعد أيام قليلة، فلماذا لم يخبرها الدكتور ريجنما بذلك، إذن؟ ومن المؤكد انه أول من يعلم هذا؟ وتساءلت عما إذا كان عليها الذهاب إلى رئيسة الممرضات للاستعلام عن هذا.

عند ذلك ذهبن إلى قاعة الطعام حيث تناولن وجبة متأخرة إذ أنه كان لديهن فراغ بعد الظهر، وإذ تعلم الآن ان عودتها إلى انكلترا باتت قريبة فقد قررت ان تخرج لشراء هدايا تأخذها معها.

كانت قد اشترت كل حاجياتها من ملاعق قهوة فضية صغيرة غاية في الرقة، لأجل أمها، وعلبة سيكار لأبيها هو نادراً ما يدخنه ولكنه يحب وضعه على مكتبه، هدايا صغيرة

لمختلف الأصدقاء... وكانت تسير في الشارع عندما تلاقت وجهاً لوجه مع سافيرا التي مدت يدها توقفها مما أثار دهشتها.

«أوجيني، ما اجمل ان اراك، وبما انني كنت انوي تناول فنجان من الشاي، تعالي معي أرجوك، فأنا لا احب تناوله وحدي.»

كانتا على مرمى حجر من المقهى الذي سبق وكانت أوجيني فيه وها هي ذي سافيرا الآن تحثها على العودة إليه معها.

«ولكنني يجب ان استلم عملي بعد ساعة...»

فقاطعتها سافيرا: «ان تناول الشاي لن يأخذ منك نصف هذا الوقت، والمستشفى لا يبعد عنك سوى دقائق معدودات مشياً.»

فلم تشأ ان تكون فظة معها كما انها لم تستطع ان تجد سبيلاً للهرب، وهكذا سمحت لها بأن تجرها إلى المقهى.

ابتدأت سافيرا تتكلم عن هذا وذاك وهي تسرف في الابتسام والتظرف ما جعل أوجيني تتساءل عن السبب، هل ان سافيرا قررت أخيراً ان أوجيني لا تشكل اي تهديد لمستقبلها، ام ان ايديريك طلب منها أن تكون اكثر تأدباً؟ واخذت تجيب على كلمات سافيرا بأجوبة مناسبة وحيث انها لم تكن تثق فيها على الاطلاق، فقد اعدت نفسها لأي مفاجأة قذرة منها.

وكان هذا شيئاً حسناً حقاً، فبعد الفنجان الثاني من الشاي قالت سافيرا بمودة بالغة: «حسناً، لقد قررت اخيراً يوم زفافنا، أنا وايديريك.» واخذت عيناها الزرقاوان

www.liilas.com

تبحثان في ملامح اوجيني عن أي أثر لذعر أو هلع، ولكنها لم تر شيئاً، فتابعت تقول: «انني اعرف ان هذا سيسرك، فهو يلح عليّ منذ شهور... منذ عقدنا الخطبة، ولكنني كنت بحاجة إلى مزيد من الوقت...» وتنهدت بشكل مسرحي مخيف، ثم تابعت: «ولكن رغم كل تعهداته ووعوده الجادة.» واطلقت ضحكة رنانة: «ثم اخذ يطلب الزواج ويلح في ذلك على الدوام، وكنت أنا اطلب منه ان ينتظر...»

وسكتت لحظة ثم تابعت: «ثم، في ذلك النهار الذي تملكني فيه الاستياء لأنه أمضاه معك، قلت له انني لا اسمح له ابداً بأن يمضي الأيام مع نساء اخريات، عند ذلك ضحك، هل يمكنك تصور ذلك؟ لقد قال لي: كنت بحاجة إلى القيام بشيء متطرف عنيف، أردت ان اجعلك تغارين. وكانت أوجيني متفرغة من العمل، فخرجت معها.»

قاومت أوجيني رغبة عنيفة في أن تميل على المائدة وتصفع وجه سافيرا، ولكنها كبحت مشاعرها جيداً، وقالت بسرور: «لقد أمضينا معاً يوماً جميلاً جداً. انا على الأقل، استمتعت به إلى حد كبير وبما ان ايديريك كان قد دعاني لمثل هذا السبب الحسن، اتوقع انه قد وجده محتملاً.» وابتسمت: «ومع هذا من الصعب عليّ تصديق ذلك، فانا لم اعرفه إلا رجلاً نزيهاً.»

وضعت سافيرا فنجانها على المائدة بشيء من العنف «ألا تصدقينني؟ اتحبين ان اواجهك به لتسمعي ذلك منه؟»

«كلا بالطبع، فهذا لا يهمني اطلاقاً.» وكان صوت أوجيني بحلاوة السكر، «انني واثقة من ان ايديريك يستحقك.» وكانت ابتسامتها نموذجاً للحلاوة. «يجب ان

اذهب الآن وإلا تأخرت عن عملي. شكراً لهذا الشاي. من المحتمل الاّ نرى بعضنا مرة أخرى، فانا ساعود إلى بلدي بعد يوم أو يومين كما سمعت.»

وبما ان المصافحة هي علامة التهذيب، فقد مدت أوجيني يدها تقبض على يد سافيرا ذات القفاز المخرم الرقيق، وذلك بشدة جعلتها تجفل، وكان طريق العودة إلى المستشفى أقصر من ان يبدد غضبها.

لم تر الدكتور ريجنما في اليوم التالي، وكان هذا شيئاً جيداً إذ انه منحها وقتاً تتمالك فيه مشاعرها وترسم على وجهها الهدوء، لقد شعرت بالسرور عندما ابلغتها الممرضة كورسما ان بديلتها ستصل بعد يومين، قائلة: «إذن، فستعودين إلى انكلترا؟ سنشتاق اليك.» وكان هذا يعتبر من جانبها مديحاً جماً.

وفي الصباح التالي، أجرى الدكتور ريجنما عملية وصل شريان. وتعقمت أوجيني كالعادة، ووقفت بين المناضد التي تحمل صواني الأدوات، منتظرة حضور الجراحين إلى غرفة العمليات، حياها الدكتور ريجنما وهو يحدّق فيها من فوق لثامه، فردت على تحيته بهدوء تام، ثم تبادلت بضع كلمات مع الدكتور فان غروت والتي كانت عادة، تشعر بانسجام عملي معه، ثم انحنت على عملها بهدوء تام. وبعد العملية، قال لها الدكتور ريجنما وهو على وشك مغادرة الغرفة، انه يريدها لعدة دقائق.

تبعته إلى مكتب الممرضة كورسما، وسرها ان ترى ان تلك السيدة كانت هناك وقد بدا عليها انها تنوي البقاء، ولكن سرورها هذا تبدد عندما تمتمت الممرضة كورسما له بشيء

ثم غادرت المكتب، تاركة إياهما يواجهان بعضهما البعض.

«انك ستعودين إلى بلدك بعد غد، يا أوجيني.»

فتقابلت عيناهما، وقالت بمرح: «آه، أعلم ذلك... لقد اخبروني هذا منذ يوم أو يومين.»

«كان عليّ ان اخبرك بذلك بنفسي، ولكنني كنت مشغولاً جداً، ولا أدري إذا كنت تحبين ان تبقي عدة أيام اخرى، حيث ترين المزيد من غرونينجين وربما تزورين دينها غ. إن بالامكان تدبير ذلك.»

«بنفس الطريقة التي تدبرت فيها أمر قضائنا ذلك اليوم معاً. كلا، شكراً.»

حدق فيها بنظرات عنيفة، وقال: «ماذا تعنين بذلك؟»

«لقد عنيت ما قلته بالضبط... وهذه عادتي.» وفجأة فقدت اعصابها. وقالت: «ان عليك ان تشعر بالخجل من نفسك إذ تستغلني بذلك الشكل، فلو كنت أخبرتني بالسبب منذ البداية، لما اكترثت للأمر إلى هذا الحد.»

قال بصوت خشن: «لا اظنني اعلم ما تتحدثين عنه.»

فقالت شاعرة بالغضب: «كنت اظن اننا صديقين على نحو ما، ولكن هذا لم يكن صحيحاً، أليس كذلك؟ وانا لا أحب ابداً كوني استغللت...»

أمسك بها من كتفيها: «ان ما تنطقين به كلام فارغ، ومن المؤسف ان وقتي اضيق من ان استطيع الوصول إلى حل لهذه الألغاز التي تقولينها، يا أوجيني...»

«لا تتلفظ باسمي. ابتعد عني، اذهب. لا اريد ان اراك بعد الآن.»

سألها وهو يضحك بازدراء يفصح عن غضبه الكامن: «يا

لسوء الحظ ولو جاء مريض بحاجة إلى عملية تجرى له، قبل رحيلك.»

فهتفت باشمئزاز وهي تدير له ظهرها.

في الصباح التالي جاءت حالة طارئة، كان رجلاً أصيب برصاصة في قلبه اثناء هجوم على مصرف، حضر الدكتور ريجنما وحياها بأدب بارد، وابتدأ بإجراء العملية، ثم شكرها في النهاية وهو يغادر غرفة العمليات، ولم تره بعد ذلك، بينما كان هو، في صبيحة رحيلها، يراقبها من النافذة وهي تستقل سيارة أجرة كانت ستقلها إلى المطار.

الفصل الثامن

تركت أوجيني مطار هيثرو إلى لندن ثم استقلت القطار إلى إكزيتر حيث سيستقبلها مات هناك ويأخذها إلى بيتها، وعندما رأته واقفاً على الرصيف في انتظارها، تلاشى شيء من شقائها. أخذها إلى السيارة ووضع أمتعتها في الصندوق، ثم جلس بجانبها.

سألها: «هل استمتعت بوقتك هناك؟» وهكذا بقيت طوال الرحلة تخبره ماذا فعلت وإلى أين ذهبت، ولكنها لم تات أبداً على ذكر الدكتور ريجنما، أما مات فلم يقل شيئاً.

كان أبوها وأمها والكلب تايغر والهرة جميعاً في انتظارها على شرفة المدخل. ألحوا على مات بالدخول لكي يشرب شيئاً، ولكنه هزّ رأسه رافضاً وهو يقول ضاحكاً: «لا بد ان لديكم الكثير لتقولونه لبعضكم البعض. سآتي غداً مساء، كالعادة وسأتناول عندذاك الشراب.»

بعد أن وزعت الهدايا، ثم صعدت أوجيني إلى غرفتها بحقيبتها، تناولوا العشاء على مهل وهي تخبرهما بالضبط ما كانت قررت أن تخبرهما به، فلم تذكر الدكتور ريجنما إلا نادراً متجاوزة ذكر خروجهما معاً.

وبعد ذلك بوقت طويل، قالت أمها لأبيها وهما يستعدان للنوم: «إن أوجيني لم تكد تذكر اسم إيديريك، لا أدري لماذا.»

أجاب: «ربما لأنها لم تره كثيراً خارج غرفة العمليات، يا عزيزتي.»

أنهت السيدة سبنسر تسريح شعرها وربطته بشريط وردي. لقد شعرت بأن ابنتها العزيزة غير سعيدة بالرغم من ثرثرتها المرحة ذلك المساء، ولكن إقناع الأب بذلك كان مضيعة للوقت، إذ أنه كان سيخبرها بطريقته الرقيقة بألاّ تكون واسعة الخيال.

إستيقظت أوجيني مبكرة. وكانت الأراضي السبخة ممتدة أمامها في ضباب الصباح الباكر، ولكن النظر إليها من خلال نافذتها لم يكن كافياً فنزلت بهدوء إلى الطابق الأسفل حيث صنعت فنجان شاي وأطعمت الهرة سمارتي وأخذت تايغر معها، ثم خرجت. كان الهواء نقياً ويبشر بيوم دافيء، ولكنه كان أيضاً مناسباً تماماً للمشي السريع، وابتدأت السير بينما تايغر يروح ويجيء حولها متجاهلاً الاغنام والحملان التي كانت تسير ببطء ترعى الحشائش.

كانت هذه فرصة ممتازة للتفكير، كما حدثت نفسها، إنما ليس بإيديريك... انها ستمضي اسبوعاً أو نحوه في البيت، وبعد ذلك تستلم وظيفة أخرى. ولكن أين؟ ليس بعيداً عن البيت. لقد تحسنت صحة أبيها، ولكنه كان دوماً معرضاً لنوبة أخرى، لقد رحل الاستاذ واطس، إنما سيكون هناك استاذ آخر سيستلم مكان أبيها إذا عاد إليه المرض، يجب ان يكون عملها في مكان تستطيع فيه أن تاتي إلى البيت في إجازاتها الأسبوعية فيكون بإمكانها رعايته. حسناً، هناك عدة احتمالات.. إكزيتر، بريستول، بلايموث... وفي كل من هذه المدن مستشفيات عصرية كبيرة، ولكن وظائف غرف العمليات لم يكن منالها سهلاً، ولكن بإمكانها ان تحاول الحصول على عمل في أقسام الجراحة...

لقد هدأت اعصابها لمرأى الأراضي الشاسعة هذه، وعلى مائدة الإفطار بدت مشرقة الوجه وهي تستمع إلى اقتراحات أبيها عما بإمكانها القيام به أثناء وجودها في البيت. ووافقته على آرائه ببشاشة وهي تعلن بأنها ستباشر البحث عن عمل آخر الأسبوع الجاري.

ومضى الأسبوع بسرعة. فكانت تساعد أمها في المنزل، وتزور المدرسة مكان أبيها، وتساعد في كشاف الأحد، وتأخذ أمها بالسيارة إلى السوق للتسوق... كان هناك الكثير من العمل الذي يشغلها على الدوام ولكن كان هناك وقت تفكر فيه في إيديريك.

• • •

كان قد مرّ عليها في المنزل عشرة أيام، عندما زار الدكتور شاو أباها الذي استسلم كارها لفحصه له. ومالبث، وقد سرته النتيجة وهي أنه قد عاد رجلاً صحيح الجسم، ان انضم إلى زوجته وابنته والدكتور، لتناول القهوة معاً.

سأل الدكتور شاو أوجيني: «ما الذي تنوين عمله؟»

أجابت: «حسناً، لا يوجد شيء في الوقت الحاضر، في هذا الجزء من العالم. انني لا أريد العمل في مكان بعيد عن البيت، فأنا أحب العودة إليه في إجازاتي الأسبوعية.»

سألها: «ألا تحبين أن تعملي في عيادة خاصة لاستشاري جراحة في توركواي؟ انها ليست في مستواك تماماً ولكنها تسهّل عليك القدوم إلى بيتك، فهو جراح مشغول على الدوام، وجراحته عمومية غالباً. حاد الطبع قليلاً كما أعتقد ولكن مرضاه يحبونه كثيراً.»

«هل تعرفه؟»

«نعم، فقد قابلته عدة مرات، وهو رجل طيب. وكما قلت، العمل هذا ليس بمستواك تماماً، ولكن بإمكانك التجربة عدة أسابيع.»

«كيف يمكنني معرفة المزيد عنه؟»

نهض الدكتور شاو يبغي الذهاب: «اكتبي إليه برغبتك بالإلتحاق بالوظيفة.. اذكري له اسمي إذا شئت ثم اذهبي لمقابلته.»

كان في هذا بعض التغيير، فقد كانت تشعر بشكل ما، بالخوف من العودة إلى المستشفى. فقالت: «سأكتب إليه، شكراً لاخباري عن هذا العمل، هل كان نشر اعلاناً بهذا الخصوص؟»

«كلا، كلا، وإنما ذكره أمامي عندما رأيته في الأسبوع الماضي.»

ولكن هذا لم يكن صحيحاً تماماً، ولكنه لم يشأ أن يخوض في أمر المكالمات الهاتفية والرسائل التي تبلورت بينه وبين الدكتور ساوبير في توركواي وصديق الدكتور ساوبير القديم الدكتور ريجنما تير ساليس. فإذا كان هذا الأخير متلهفاً إلى ان تحصل أوجيني على عمل يناسبها في أقرب وقت ممكن، وقريباً من بيتها، فهو لم يجد ما يدعوه إلى مناقشة هذا الأمر، وقد بدا الدكتور ساوبير راضياً تماماً عن هذا التدبير والذي سيكون مناسباً تماماً لأوجيني التي كان يكن لها المودة.

وقال ينصحها: «اكتبي إليه سطرين.»

ففعلت، وعندما أخذت موعداً بعد أيام قليلة، قادت سيارتها إلى توركواي. خلال المدينة، ثم ابتعدت عن البحر لتدخل شارعاً عريضاً قامت الأشجار حوله، وخلفها قامت

بيوت فخمة مبنية بالقرميد على الطراز الفيكتوري، فسارت ببطء تنظر إلى البيت المنشود. أوقفت السيارة، وصعدت الممر القصير، ثم قرعت الجرس.

أدخلتها امرأة كبيرة السن ترتدي ثوب عمل إلى غرفة جلوس صغيرة، طالبة منها الإنتظار. كانت الغرفة خالية ولكنها بعكس اكثر غرف الانتظار كانت جميلة مشرقة، قد رصت المجلات بعناية على المنضدة في الوسط وكانت جديدة تقريباً، وكان هنالك أزهار على رف كتب هناك، كما كانت الأرض مفروشة بسجادة تمتد من الجدار إلى الجدار، وتساءلت عن الدكتور ساوبير أي نوع من الرجال هو...

ولم يكن كما توقعته، فقد هب واقفاً من خلف مكتبه حال دخولها عليه، وهو يمد يده مصافحاً. كان رجلاً قصير القامة ممتلىء الجسم ذا شاربين كبيرين وشعر أحمر قد ابتدأ يخف في مقدمة رأسه، إلى عينين زرقاوين باهتتين تحت حاجبين كثين، وكان وجهه مستديراً باسماً.

كانت قبضته قوية وصوته عميقاً وهو يقول: «انك الآنسة أوجيني سبنسر التي نصحني بها الدكتور شاو الطبيب. اجلسي لكي نتبادل الحديث. ان لدي رسالتك هنا في مكان...» واخذ يبحث في كومة من الأوراق على مكتبه، ثم عاد يقول: «لم اجدها حالياً ولكن هذا غير مهم، فقد كانت، وشهاداتك ضمنها، مرضية تماماً. متى يمكنك البدء بالعمل؟»

لم تكن تتوقع هذا، وقبل ان تجيب، تابع يقول: «إن ممرضتي سترحل آخر هذا الأسبوع... لتتزوج.» ووضع نظارات قديمة الطراز على عينيه، وحملق فيها ثم قال: «انك جميلة جداً... اظنك ستتزوجين أنت أيضاً.»

فقالت: «أنا لا أفكر في الزواج، يا دكتور ساوبير، وبإمكاني القدوم في الوقت الذي تريدني فيه. هل بإمكاني أن اعرف المزيد عن عملي هنا؟»

«هذا عظيم. تعالي صباح السبت وابدإي العمل. انني استقبل المرضى بين التاسعة والعاشرة كل صباح، ثم أذهب إلى المستشفى حتى الساعة الواحدة أو الثانية بعد الظهر، وغالباً ما ياتيني مرضى عند المساء. لك إجازة نصف نهار يوم الخميس لأن لديّ، عندذاك، عيادة خارجية للمرضى في المستشفى... ثم نصف نهار آخر يوم السبت، وكل نهار الأحد. يمكنك أن تذهبي إلى... هل لديك سيارة؟»

«نعم نعم، لديّ سيارة. هل بإمكاني استلام الغرفة التي تسكن فيها ممرضتك؟»

«انها تسكن مع أمها. ولكنها تعرف إمرأة...» وأخذ يبحث بين الأوراق مرة أخرى ليخرج ورقة قرأ فيها: «السيدة برويير، تسكن عند الزاوية فوق متجر للورق، وهي ستكون مسرورة لحصولها على مستأجر. الأفضل أن تذهبي لرؤيتها قبل عودتك إلى بيتك. هل أخبرتك عن راتبك؟ كلا؟» وذكر لها رقماً اعتبرته ممتازاً بينما تابع قائلاً: «سأسجل كل شيء كتابة. لن يكون ثمة عقد بيننا وإنما هناك شهر إنذار بيننا إلا إذا حدث شيء غير متوقع.»

وقد يعني هذا أي شيء.

وافترقا كأحسن صديقين، توجهت هي إلى البحث عن منزل السيدة برويير، بينما أمسك هو بالهاتف ليتصل بصديقه القديم إيديريك ريجنما تير ساليس.

كان هناك باب جانبي بجانب متجر الورق خلفه سلم

شديد الإنحدار. صعدته أوجيني، ثم قرعت الباب الذي في نهايته لتفتح لها امرأة صغيرة الجسم تحمل بين ذراعيها هراً كبيراً.

«هل أنت الشابة التي ستعمل عند الدكتور ساوبير؟ أدخلي. كنت انتظرك.» وابتسمت لها. «انها غرفة صغيرة، وبإمكانك ان تتناولي هنا طعام الافطار والعشاء.» وسارت أمامها إلى ردهة ضيقة تنتهي بغرفة، كانت صغيرة قطعاً، ولكن فيها نافذة عريضة تشرف على حديقة مهملة، كما كانت مؤثثة جيداً وغاية في النظافة.

سألت أوجيني عن الأجرة، ثم اخبرتها برغبتها في الإستئجار.

قالت السيدة بروبير: «هذا يناسبني، يمكنك أن تأخذي المفتاح، إنما لا أريد اصدقاء من الرجال، إياك. لا اريد شباناً داخلين خارجين في كل ساعة.»

فقالت أوجيني بنعومة: «ليس لدي اصدقاء رجال.»

«لا بد ان يكون لك ذلك، فانت جميلة وليس فيك عيب.»

عادت أوجيني إلى بيتها وقد تشابكت أفكارها بين وظيفتها الجديدة وبين إيديريك. وحدثت نفسها بأنها ستنساه حالما تبدأ في العمل من جديد، ولكن حتى ذلك الحين، لم يكن ثمة ضرر من العودة إلى التفكير في كل لحظة كانا فيها معاً، والأشياء التي قالها لها، وفقدانها المؤسف لاعصابها، كان من الأفضل لو انهما افترقا كصديقين حميمين.

استقبل والداها خبر وظيفتها الجديدة بالسرور وقالت أمها: «ما أجمل أن تاتي إلى البيت في إجازاتك

الأسبوعية.» بينما نظر إليها أبوها قائلاً: «سيكون بإمكانك أن تعودي للإشراف على كشاف الأحد، يا عزيزتي.»

فوافقته على ذلك ببشاشة. سيصبح بإمكانها ملء الفراغ الذي تركه ذهاب إيديريك، وكشاف الأحد سيساعدها على ذلك.

استقلت سيارتها إلى المدينة حيث اشترت ملابس تمريض من قماش النايلون وحذاءً مناسباً. وبما أن الأمسيات ستكون طويلة، فقد صممت على الذهاب في نصف يوم الإجازة، لشراء صوف للحياكة وأشياء لغرفتها لتشعر فيها بانها ملكها. كان لديها راديو صغير، وزهرات قليلة وكتب مما سيجعل المكان يبدو جميلاً مريحاً تماماً، وحزمت أمتعتها، وذهبت في نزهة مع الكلب باكراً صباح السبت، ثم حيّت والديها قبل ان تستقل سيارتها إلى توركواي.

طلب إليها أن تذهب إلى عيادة الدكتور ساوبير بعد ظهر السبت لكي تأخذها الممرضة التي ستترك العمل بجولة حول غرفة الكشف، ثم مكتب الاستقبال ثم الغرفة الصغيرة في الخلف حيث بإمكانها صنع الشاي والقهوة، وأن تحفظ الملفات وتعقم الأدوات التي سبق استعمالها.

كانت الممرضة حلوة ودودة. وقد قالت لها: «انها وظيفة جيدة. وأنا هنا منذ ثلاث سنوات. لقد أردت ترك العمل منذ شهور، في الواقع، ولكن الدكتور ساوبير كان لايفتأ يطلب مني الإنتظار قليلاً، إلى أن اخبرني فجأة، في الأسبوع الماضي، أنه وجد ممرضة مناسبة بدلاً مني وأن بإمكاني ترك العمل. لقد كانت مفاجأة في الحقيقة، إذ جاءت بمثل

هذه السرعة، ولكنني مسرورة بالطبع. إنه رجل طيب ولكنه حاد الطبع أحياناً، فلا تهتمي بذلك.»

أجابت أوجيني وهي تتفحص محتويات الخزائن والأدراج وملفات المرضى التي تعلو الرفوف، انها لن تهتم.

تناولت عشاءها في المطبخ الصغير المشرق، وذلك مع السيدة بروبير، وقد اقتسمتا بالتساوي قطعة مشوية من لحم خروف، وكذلك الخضر بينما جلس الهر عند قدميها.

قالت السيدة بروبير: «ان موبسي مولع بأكل قطعة طيبة من لحم الخروف.» وأومأت برأسها راضية عندما فهمت أوجيني الإشارة، فأزاحت جانباً قطعة من حصتها لأجل الهر

قالت لها السيدة بروبير: «انتبهي إلى أنه لن يكون بإمكاني تناول عشائي معك في الأمسيات... فانا أحب أن آكل في منتصف النهار. فاخبريني عندما تعودين كل مساء لأطهو لك طعامك، ثم تأكلينه في صينية في غرفتك. وعند الإفطار ساكون هنا. فالإفطار سيكون في الثامنة صباحاً، وستجدين عشاءك، مساءً، في الفرن. ويمكنك ان تجلسي في الغرفة الأمامية، فعندي تلفزيون.»

وفي اليوم التالي، خرجت أوجيني تتمشى على شاطىء البحر، حيث تناولت غداء خفيفاً في مقهى صغير مزدحم قريب وهي تفكر بشوق في قريتها دارثمور.»

وعندما جاء صباح الاثنين، شعرت بالسرور للذهاب إلى العيادة الإستشارية. كان هناك موظفة استقبال لجزء من النهار هي الآنسة باركس والتي كانت تقارب الخمسين من عمرها. وكان يبدو عليها طابع عدم الرضا تقريباً، وأحست أوجيني أن الآنسة باركس لن تحبها مع انها لم تعرف

السبب. واستمعت بأدب إلى ملاحظات المرأة هذه، قبل ان تنصرف إلى واجباتها إلى حين وصول الدكتور ساوبير وابتداء عمل الصباح.

مر اليوم الأول بشكل حسن تماماً، ولكنها لم تكن مسرورة من الآنسة باركس إذ امتنعت هذه عن تقديم أي نصيحة أو معلومات تسهل عليها عملها، ولكن الدكتور ساوبير كان رئيساً يسهل التعامل معه إلا إذا احتد طبعه. وكان واضحاً أن المرضى كانوا يحبونه، وعندما ذهب آخر مريض، تناول قهوته أثناء اتصالاته الهاتفية واملائه رسالة أو اثنتين، ثم اخبرها عما ستجهزه لأجل مرضى بعد الظهر متمنياً عليها تنظيم مكتبه إذا كان لديها وقت.

أدهشها هذا كثيراً إلى درجة أخذت تحدّق فيه لحظة، فقال بصوت خشن: «نعم، أعلم بأننا، عادة نعمل على مكاتب تعمها الفوضى، أليس كذلك؟ ولكن هنالك بعض الأوراق في مكان ما... وليس عندي وقت للبحث عنها... وهي تتعلق بالسيد هاري داوس والسيدة ويذربي اللذين سيحضران بعد ظهر هذا اليوم... فكوني فتاة طيبة وفتشي عنها.»

وعند عودته، كانت هي قد فرزت الأوراق ونظمتها وقد وضعت الأوراق الضائعة أمامه على المكتب لكي يراها أول وصوله، ولأنه تأخر، فقد أمضت نصف ساعة تطمئن أول مرضاه إلى أنه سيصل في أسرع وقت ممكن.

جلس إلى مكتبه، ورأت هي وجهه المتعب، فقالت: «ساحضر اليك فنجان قهوة. هل فاتك غداؤك، يا سيدي؟»

«لقد اخرني عن ذلك زائدة دودية انفجرت بينما كنت أقوم بالعملية.»

«ألم تتناول غداءك؟»

«كلا. هل جاءت السيدة ويذربي؟»

«نعم، انها في غرفة الانتظار. ان انتظارها خمس دقائق أخرى لن يؤثر عليها، سأصنع لك شطيرة.»

أوما شاكراً وهو يفكر في أن كلام إيديريك صحيح، فهي ليست جميلة فقط وإنما ذكية ومتزنة ولا تضيّع وقتها بالتفاهات.

أكل شطيرته، وشرب قهوته، ثم طلب منها ادخال أول مريض.

مر الأسبوع بسرعة، ووجدت أوجيني العمل سارا وأقل مسؤولية وإرهاقاً من العمل في غرفة العمليات. الأمسيات فقط كانت موحشة، وكانت قد ذهبت تتمشى في أول مساء لها ولكن المدينة كانت مزدحمة بالزائرين وسرعان ما اكتشفت انها كانت معتبرة صيداً جميلاً لأي رجل كان يبحث عن رفيقة، وهكذا اخذت تتناول غداءها على صينية في غرفتها عندما تكون السيدة بروبير في المنزل، وعندما كانت خارج المنزل، كانت تتناوله في المطبخ بصحبة الهر.

في إجازة نصف النهار، ابتدأت تحوك جوربين لوالدها، لفصل الشتاء، كما انها اخذت تقرأ بكثرة، وكانت تستيقظ مبكرة ثم تخرج لنزهة سريعة في الشوارع قبل الإفطار. وكانت تشعر لهذا، بسرور كبير. فقد كانت الشوارع خالية لا ترى فيها سوى بائعي الحليب وموزعي البريد، وأثناء ساعة الغداء كانت تشتري شطائر وعلبة حليب ثم تذهب إلى حديقة صغيرة عمومية غير بعيدة، وكانت الآنسة باركس تبقى حيث هي فتتناول طعامها وتشرب الشاي الذي تصنعه

لنفسها، ولم تكن أوجيني لتمانع في تناول طعامها معها لو ان هذه طلبت منها ذلك، ولكن الآنسة باركس كانت قد بادرتها بالقول إن الممرضة السابقة كانت تذهب لتناول غداءها في منزلها.

كان الوقت بعد الواحدة بعد الظهر من يوم السبت عندما انهت تنظيم العيادة ثم خرجت مسرعة إلى غرفتها في منزل السيدة بروبير لكي تبدل ملابس ثيابها، فارتدت ثوباً قطنياً وعلقت حقيبتها في كتفها، ثم نزلت إلى سيارتها التي كانت أوقفتها بجانب المتجر، لتستقلها عائدة إلى بيتها دون اضاعة لحظة واحدة.

قفز قلبها سروراً وهي تتوجه نحو الأراضي السبخة الشاسعة. كانت القرية هادئة وقد غمرتها أشعة شمس العصر، ولكن لا بد أنهم سمعوا صوت سيارتها تصعد التل، لأن والديها، وكذلك الكلب تايغر والهرة سمارتي كانوا جميعاً واقفين عند الباب في انتظارها.

قالت أمها على الفور: «سنتناول الشاي خارج المنزل، أليس كذلك؟ اصعدي باشياءك إلى غرفتك يا عزيزتي بينما اضع أنا إبريق الشاي على النار. آه، ان هنالك رسالة لك قد وضعتها على منضدة الردهة، انها من هولندا.»

اندفعت أوجيني إلى الردهة وقد شحب وجهها فجأة. انه إيديريك. لقد كتب إليها... ربما هو قادم... عشرات الخواطر اندفعت إلى ذهنها. فالتقطت الرسالة لترى على الفور انها من الممرضة كورسما.

كانت خيبة أملها عظيمة إلى حد أوشكت فيه على الانفجار بالبكاء، والذي كان أمراً سخيفاً، كما حدثت نفسها

بعد لحظة، ما الذي يجعله يكتب إليها، على كل حال؟ وما هذه الحماقة منها التي تجعلها تفكر في أنه سيقوم بذلك؟ في حين أنه لا بد قد نسيها الآن. وعادت ببطء والرسالة بيدها، «انها من ممرضة العمليات في غرونينجن، سأقرأها الآن.»

كانت تتكلم بوجه مشرق غير طبيعي ما جعل أمها تعاود النظر إليها وقد تكهنت انها ليست الرسالة التي كانت ابنتها تتمناها، وعادت بأفكارها إلى الماضي القريب لتدرك ان ابنتها لم تكن على عادتها وذلك منذ رجوعها من هولندا، نعم، انها مازالت بشوشة الوجه كعادتها، ولكنها اصبحت ميالة إلى الاستغراق في فترات طويلة من الصمت... واخيراً قررت الأم ان ابنتها مغرمة... وبإيديريك... ولكن لماذا لم يقع في غرامها هو أيضاً؟

وقررت أن تعثر على الجواب وذلك أثناء وجودها بينهم. ولكن أوجيني لم تشا الإفصاح، فكانت تراوغ أمها بدهاء إذ أمها سؤالاً، وحدثتها عن رحلتها إلى ماديرا أيضاً، ولكنها لم تتكلم كثيراً عن رحلتها إلى البوسنة ذلك لأنها وجدت من الصعب ان تتحدث عن ذلك دون أن تأتي على سيرة إيديريك.

عادت إلى غرفتها في توركواي مساء الأحد بعد أن وعدت والديها بالعودة في إجازتها الأسبوعية التالية، فوجدت السيدة برويير في الخارج وقد تركت لها ورقة على منضدة المطبخ تخبرها فيها انه يوجد لحم بارد وخضر مطبوخة في الثلاجة وصينية شاي جاهزة، وان بإمكانها صنع قهوة إذا شاءت.

تناولت عشاءها في المطبخ وهي تستمع إلى الراديو وتطعم الهر معظم اللحم. فهي لم تكن جائعة بينما كان واضحاً أنه جائع تماماً.

مر الأسبوع ببطء بالرغم من ان الدكتور ساوبير جاءه الكثير من المرضى حيث كانوا يتدفقون عند المساء بكل مالديهم من مشاكل، ما كان يقتضي الكثير من الاتصالات الهاتفية وتقديم أكواب الشاي والقهوة للترفيه عنهم وإظهار المودة والتعاطف مع اقربائهم الخائفين عليهم. ولكثرة ما كان الدكتور ساوبير يظهر الكثير من الصبر تجاههم، فقد أصبح حاد الطبع مع نهاية الاسبوع، ولم تستطع هي ان تلومه حيث انه كان يعمل في المستشفى أيضاً. وبالاجمال، فقد كانت مسرورة لامتلاء يومها بالعمل، اما الآنسة باركس فقد بقيت على نفورها الخفيف منها. ومع انها كانت تقوم بعملها بكل دقة، إلا أنها لم تتقدم، ولو مرة، للقيام بغير عملها الخاص بها، حتى ولو مجرد وضع إبريق الشاي على النار حين كانت هناك دقيقة فراغ تسمح بتناول فنجان من الشاي، ولكن أوجيني لم تهتم بذلك، فقد كانت تشعر انها محظوظة لعثورها على وظيفة قريبة من قريتها. كانت تركت العيادة متأخرة، وحيتها السيدة برويير من المطبخ حين دخولها: «ان عشاءك جاهز. لقد تأخرت قليلاً.»

«لقد كان اسبوعاً حافلاً بالعمل، سانزل لآخذ صينية عشائي بعد دقيقة.»

ابتدأت بتناول السجق، وحيث انها لم تكن فكرت في إيديريك طوال النهار، فقد ابتدأت في التفكير فيه الآن.

وانتبهت من افكارها على همهمة اصوات، ثم قرع صاحبة البيت على بابها قبل ان تفتحه قائلة: «لقد سبق ونبهتك إلى انني لا اريد اصدقاء رجالاً هنا، يا آنسة سبنسر، ولكن بما ان هذا السيد هو طبيب وصديق للسيد ساويير فلن اقول شيئاً.»

ووقفت جانباً لكي يتمكن الدكتور ريجنما تير ساليس من الدخول.

شهقت أوجيني وقد جمدت يدها التي كانت تحمل قطعة السجق بالشوكة وترفعها إلى فمها، لتقول: «ليس لديّ اصدقاء رجال يا سيدة بروبير.» ولكن صوتها لم يكن ثابتاً تماماً بعد إذ تسمرت عيناها على وجه ايديريك الذي كان يكسوه الهدوء إلى شيء من الهزل.

قال برقة: «انني شاكر لك لطفك، يا سيدة بروبير، فقد كنت والآنسة سبنسر نعمل معاً ويبدو أنها فرصة رائعة إذ أراها أثناء وجودي في انكلترا.»

أومأت السيدة بروبير: «بما انك طبيب...» ثم خرجت واغلقت الباب خلفها، بينما تقدم هو نحو أوجيني التي قالت: «مساء الخير يا دكتور ريجنما تير ساليس.» وبدا قولها هذا سخيفاً، ولكنه كل ما استطاعت النطق به.

«اسعد الله مساءك، يا آنسة أوجيني سبنسر. وكذلك المساء جميل، أليس كذلك؟ ولكنني لست هنا للحديث عن الجو.»

تركت قطعة السجق من يدها وسألته: «لماذا أنت هنا؟»

«اريد ان اطمئن إلى انك سعيدة. هل استطيع الجلوس؟»

«آسفة، تفضل بالجلوس. اني سعيدة جداً، وشكراً لك.»

وأزاحت الصينية جانباً وهي تتابع: «هل أنت في المستشفى هنا؟»

«كلا، كلا، ان جورج ساويير هو صديق قديم لي وليس عندي سوى يومين إجازة.»

«آه، فهمت. انك تقيم إذن في بيته؟»

«كلا.»

«كيف علمت إذن أنني هنا؟ اظن انه ذكر اسمي امامك بالصدفة.»

«لم يكن به حاجة لذلك. فقد كنت أعرف مكانك.»

نظرت إليه مستغربة: «كنت تعرف؟ كيف؟ وظيفتي هذه... هل دبرتها انت لي؟ هل جعلته يأخذني إليه.. وهل ذلك لتريح ضميرك فقط؟» وشحب وجهها لشدة الغضب.

فلم يهتم لغضبها هذا: «نعم، كنت انا من اقترح عليه اسمك. فقد كان ذكر لي أنه يبحث عن ممرضة. كلا، فلنكن صادقين مع بعضنا، لقد ابتدأت أنا بسؤاله عما إذا يعرف وظيفة مناسبة لك فأخبرني انه يبحث عن ممرضة.» وابتسم لها، «ارأيت؟ لقد أردتك ان تكوني في مكان استطيع معه ان اسمع اخبارك من وقت لآخر.»

حاولت ان تجد جواباً لهذا فلم تستطع، فسألته: «اتريد قهوة؟ واظن ان عليك ان تذهب بعد ذلك.»

وأخذت ملعقة اخذت تحرك بها حلوى الكاسترد مرة بعد مرة حتى شوهت مظهرها، فوضعتها جانباً. فقال: «فكرت في ان نخرج لتناول العشاء معاً. هذا إذا استطعنا إخفاء ذلك الطعام الذي على الصينية.»

كانت قد تغلبت على دهشتها الآن، فقالت: «كلا، اشكرك،

فلدي عشائي هنا... وفي الواقع لا احب الخروج معك، وكذلك لا احب رؤيتك مرة أخرى... أبداً.»

نهض قائلاً: «في هذه الحالة، سأقول لك وداعاً، يا أوجيني.» وابتسم.. ولم تكن ابتسامته حلوة كما لاحظت، ثم مشى نحو الباب وهو يقول: «استمتعي بهذا السجق. وبينما انت تأكلينها، فكري في انني لست الاستاذ واطس بحيث يلقى بي جانباً واطرد لمجرد حقد نسائي.»

فغرت فاها ناظرة إليه، وعندما وجدت ما تقوله كان الوقت قد فات. كان قد خرج.

لم تشأ أن تبكي. وسكبت فنجان قهوة مشيحة بوجهها عن السجق. كانت جائعة، ولكن ليس إلى حد تأكل فيه هذا، وسرعان ما سمعت وقع خطوات السيدة بروبير، ثم قرعاً على بابها، فأسرعت تلتقط الشوكة والسكين قبل ان تدخل هذه قائلة: «لقد ذهب. هل كنت تعملين لديه؟ انه يبدو طبيباً ماهراً حكيماً، فقد وافقني تماماً عندما أوضحت له انني لا استقبل اصدقاء رجالاً في هذا المنزل. حسناً، مادام قد ذهب، فسأخرج انا لزيارة صديقة لي.» ووقفت عند الباب برهة. «إذا ذهبت إلى سريرك فاقفلي الباب... فلن اعود قبل العاشرة والنصف.»

تمنت أوجيني لصاحبة البيت سهرة سعيدة ثم انتظرت إلى أن سمعت الباب الخارجي يقفل، فنزلت بالصينية إلى الطابق الأسفل حيث وضعت طعامها في كيس من البلاستيك، ثم عادت تحضر سترتها وحقيبة يدها. فقد كان هناك محل يبيع السمك والبطاطا المقلية على بعد خمس دقائق مشياً، هذا إلى ان قلبها كان يتحطم، وكانت الآن جائعة. وعليها ان

تأكل في المحل لئلا تشم السيدة بروبير رائحة السمك عند عودتها، فتحس بجرح في مشاعرها.

انتظرت حوالي العشر دقائق لئلا تكون صاحبة البيت قد نسيت شيئاً، وبعد ذلك خرجت من البيت.

كان الدكتور رينجما تير ساليس واقفاً بجانب الباب متكئاً على الجدار. فامسك بذراعها وجعلها تسير في الشارع بكل حيوية ونشاط، وهو يقول: «كنت انظر في الأنحاء هناك مقهى في الشارع التالي... هو يبدو أنه لا بأس به، يمكننا تناول الطعام هناك.»

فقالت له بحدة: «هل انت مجنون؟»

«كلا، كلا، ولا أنا الاستاذ واطس.»

فقالت بينما هو يجرها مستعجلاً إياها: «كفى حديثاً عنه طوال الوقت. وكيف تجرؤ على ازعاجي بهذا الشكل؟»

سألها برقة: «ألم تكوني خارجة لتأكلي سمكاً وبطاطا مقلية؟ ربما سيجرح هذا مشاعر السيدة بروبير.»

فوقفت فجأة قائلة: «آه، لقد نسيت الكيس على مائدة المطبخ...»

«تقصدين عشاءك؟ دعيني آخذه عند عودتنا وسأتخلص منه.»

كانا قد وصلا إلى المقهى وفتح هو الباب، ولكنها وقفت تقول بحزم: «انني كنت أعني ما اقول.»

«نعم، اعلم ذلك، ولكنني جائع أيضاً، فهل لنا أن ندفن خلافاتنا أثناء تناولنا الطعام؟ ليس بك حاجة إلى الكلام، إنسي أنني موجود هنا. هذا إلى أنه ليس أمامنا وقت كاف للحديث. متى ستعود السيدة بروبير؟»

كان قد أجلسها إلى مائدة بجانب النافذة في ذلك المكان

الذي كان شبه مزدحم، فأجابت: «حوالي العاشرة والنصف، إنما قد تعود قبل ذلك.»

«في هذه الحالة، علينا أن نفكر في عذر ما... ولكننا سنكون في امان لمدة ساعة من الزمن.»

جاءت النادلة، وكانت امرأة في منتصف العمر: «لقد فرغ الدجاج، وكذلك السمك. عندنا سجق وعجة.»

فقالت أوجيني: «أريد عجة من فضلك، وسلطة.»

«أريد عجة وبطاطا مقلية وبازيلا من فضلك، بالاضافة إلى عصير الليمون.»

كانت العجة جيدة بشكل مدهش، وانهت أوجيني عشاءها بفنجان قهوة رافضة الحلوى. وأثناء ذلك أخذت تعد في نفسها كلمات الشكر له لدعوته هذه لها. وإذا به يقول لها بلطف: «لا تضيعي الوقت في التفكير بتقديم الشكر. فهي ستضيع في شخصي على كل حال. فإذا كنت انتهيت فسنعود حيث تعطيني كيس البلاستيك.»

بدا تصرفه هذا جافاً إلى درجة جرحت مشاعرها، وبعد، فقد كان لهذا الجفاء أن يكون من ناحيتها هي، وبقيت صامتة أثناء العودة وقد حل مكان الضيق وحدة الطبع، حزن لمعاملته العادية هذه لها. فهو حقاً لم يأت إلا ليطمئن على أن لديها عملاً جيداً وليس لسبب آخر. ولم تستطع أن تحدد بينها وبين نفسها أي سبب آخر قد يكون هناك.

دخلا المنزل وقصدا المطبخ حيث اعطته الكيس قائلة: «اشكرك لهذا العشاء ولرغبتك من التخلص من هذا الكيس. أرجو انك تمضي وقتاً سارا في لندن.» ودفعها دافع لأن تقول: «أرجو أن تكون سافيرا بخير.»

«انها غاية في الحيوية والنشاط.»

لم تكن تريده ان يذهب، وهذه المرة سيكون رحيله نهائياً. فقد أرضى نفسه في أنها قد استقرت الآن في عمل، وهكذا سيكون بإمكانه العودة إلى غرونينجن ليتزوج. فهو إذا لم يخرج بسرعة فستنفجر بالبكاء...

قالت له وداعاً، ثم سارت تفتح الباب وتمسكه بيدها تنتظر، فإذا قال إلى اللقاء فمعنى ذلك أنها ستراه مرة أخرى. ولكنه قال بلهجة عادية: «وداعاً، يا أوجيني.» ثم حمل الكيس وخرج، كان الهر واقفاً أمام الثلاجة بشكل ذي معنى، فأخرجت له طعامه ووضعته أمامه، وكانت الدموع تنحدر على وجنتيها فمسحتها بأصابعها ثم صعدت إلى غرفتها اغتسلت وهي ما زالت تبكي، فهذا هو المكان الوحيد الذي يمكنها البكاء فيه بحرية. ثم أوت إلى سريرها وأغمضت عينيها وهي تتمتم: لقد كنت حمقاء يا أوجيني، ولن يستمر هذا الهراء بعد الآن.

الفصل التاسع

كانت أوجيني تظن أن صورة ايديريك ستتلاشى من ذهنها مع مرور الأيام. ولكن هذا لم يحدث. لقد كانت تفكر فيه طوال الوقت رغم محاولاتها صرف ذهنها عنه. كانت نفسيتها مضطربة وأخذت تفكر جادة في تغيير أسلوب حياتها كلياً وذلك أملاً في أن تنساه. ولو كانت حرة في حياتها لفتشت عن وظيفة تبعد عن مكانها هنا ألوف الأميال... استراليا أو كندا أو أبعد مناطق أميركا الجنوبية.

لكن الدكتور ريجنما تير ساليس كان يعرف تماماً ما الذي سيقوم به بالنسبة إلى مستقبله، وكان ذلك يتطلب صبراً وتخطيطاً، بالطبع، وكان قادراً على هذين الأمرين، عاد إلى غرونينجن ليستغرق في عمله دون استثناء أي شيء آخر. وعندما أخذت سافيرا تشكو من أنه لا يجد وقتاً لياخذها إلى العشاء أو المسرح، قال لها إن عمله يأتي قبل أي شيء آخر، موضحاً بعطف: «إنني أعرف كم هو مزعج هذا الأمر بالنسبة إليك. ولكن لا بد أنك أدركت في بداية خطبتنا أن ليس لديّ وقت كاف للحياة الاجتماعية التي تسيرين فيها.»

فقالت له بحدة: «إن عليك أن تغيّر هذا عندما نتزوج. فأنا أرفض الخروج من دون أن ترافقني. لماذا لا تدع جراحاً آخر يؤدي عملك؟»

نظر إليها بفضول قائلاً: «هل أنت جادة في كلامك هذا؟»

«طبعاً أنا جادة، فأنت ناجح وغني. ويمكنك أن تبقى

استشارياً وتأخذ مرضى خصوصيين، إن ذلك يمنحك شيئاً من الفراغ تستمتع فيه بالحياة.»

«إنني أستمتع بالحياة الآن. وطبعاً عندما نتزوج يجب أن يكون عندي المزيد من الوقت أقضيه معك ومع الأولاد.»

«إنني لا أنوي أن أزعج نفسي بانجاب أولاد في أول خمس أو ست سنوات من زواجنا. مهما كانت المربية جيدة، فهم سيبقون مزعجين. بجانب ذلك، أظن أن علينا أن ننجب ولداً واحداً فقط.»

أخذ الدكتور ريجنما تير ساليس يتأمل أظافره وهو يقول: «إنك تعلمين أنني دوماً كنت أريد أسرة كبيرة...»

عند ذلك صرخت به سافيرا: «لماذا لم اكتشف حقيقتك إلا الآن؟ رجلاً أنانياً مستبداً برأيه؟ إن في الحياة أشياء أكثر من مجرد العمل وتكديس الأولاد، وأنا أنوي أن أستمتع بالحياة...» وسكتت فجأة وهي ترى اللامبالاة الهادئة في وجهه، ثم عادت تقول: «يا عزيزي ايديريك، أرأيت كيف جعلتني أفقد أعصابي؟ يجب أن ترى الأمر من وجهة نظري. إنني شابة وجميلة وأحب قضاء أوقات طيبة بينما أنت تريد أن تدفنني حية أسهر في انتظار عودتك من المستشفى والأولاد حولي يصرعون رأسي بصراخهم. إنك لا تريد أن تجعلني تعيسة، أليس كذلك؟»

قال بهدوء: «هذا آخر شيء أحب أن أقوم به.»

بدا في ابتسامتها الانتصار: «إذن، فابدأ الآن بأخذي للعشاء في الخارج...»

قطع رنين الهاتف كلامها، فمضى إليه يجيبه، ثم يقول لها بهدوء: «إنني مطلوب في المستشفى، وعليّ أن أذهب. هل

أوصلك في طريقي أم أخبر جاب أن يحضر لك سيارة أجرة؟»

أجابت بغضب: «بل سيارة أجرة. إن بيي فان تويست سيكون مسروراً بأن يأخذني إلى العشاء.»

وفي الأسبوع التالي، سافر إلى روما، وبعد ذلك إلى انكلترا. لم يكن ذهابه لرؤية أوجيني. كان يريدها زوجة له، ولكنه كان يريد أن ينتظر. كان يعرف أن سافير وقد واجهت حقيقة ما ستكون عليه حياتها كزوجة لجراح، لن تتزوجه أبداً، ولكنه كان يريد أن يتأكد من مشاعر أوجيني، كانت فتاة ذات كبرياء، ثم أنه رغم كونه لم يصدقها حين قالت له أنها لا تريد رؤيته مرة أخرى أبداً، كان يريد أن يكون متأكداً تماماً...

لم يكن قد مضى على عودته إلى غرونينجن أسبوع بعد، عندما سافر إلى شمال إيطاليا حيث كان هناك مستشفى استقبل مجموعة من اللاجئين. وبقي هناك عدة ايام، وعندما عاد إلى بيته اخيراً، جاءت سافير التراه. وكان عند عودته قد اغتسل واخذ باتش إلى الحديقة، ثم ذهب بعد ذلك إلى غرفة مكتبه ليقرأ رزمة الرسائل الموضوعة على المكتب. كان متعباً، وتمنى من اعماقه لو كانت أوجيني عنده ليتحدث إليها، متحدثاً عن مرضاه، ذاكراً بعض الأجهزة الجراحية الجديدة. عندما قابل سافيرا لأول مرة، اخذت تتظاهر بالاهتمام بعمله، ولكن بعد عقد الخطبة اخبرته ضاحكة ان عليه ان ينسى عمله عندما يكون معها، كانت قد قالت له بدلال: «هل أقول لك الحقيقة؟ انني امقت الأشياء الكريهة وهنالك الكثير من المرح والتسلية يمكننا ان نستمتع به.»

ولأنه كان يظن نفسه مغرماً بها في ذلك الحين، حرص

على ألاّ يأتي على ذكر كل ما يتعلق بعمله امامها، وإذا به بعد عدة اشهر فقط يدرك انه لم يقع في الغرام ابداً وعلى الأخص في غرام سافيرا. ولكنه عندما رأى وجه أوجيني الجميل يحدق فيه من خلال الضباب، ويسمع صوتها غير المتكلف، أدرك انها هي الفتاة التي كان قد يئس، منذ وقت طويل، من العثور عليها، وكان في ذلك الحين خاطباً لسافيرا التي كانت تتظاهر بحبه، وكان هو رجلاً شريفاً ولم يدرك إلا حديثاً ان سافيرا ابتدأت تقدم متطلبات بالنسبة إلى مستقبلهما. لم تكن تريد السكن في غرونينجن، بل في بيت ريفي غير بعيد عن المدينة، بحيث يمكنها رؤية اصدقائها إذ تدعوهم إلى قضاء إجازات آخر الاسبوع عندها. كانت تحب الرحلات إلى باريس وجنوب فرنسا. وكان عليه ان يتخلى عن معظم عمل المستشفى ويرفض الذهاب إلى أنحاء أوروبا.

لم تتقدم بأي من هذه المطالب بشكل مباشر، بل كانت تتقدم باقتراحاتها هذه بكل رقة كلما كانا معاً، وذلك بتلميح إلى هذا أو ذاك. وفي آخر مرة تقابلا فيها، كانت غاضبة، مما جعلها تفضح مشاعرها الحقيقية، لتعود فتحاول إخفاءها حين أدركت انها قد تمادت في الأمر. وهذا الرجل، بيي فان تويست هو رجل غني وسيم الشكل ويبدو انه من الثراء بحيث يستطيع العيش كما يهوى، وقد أتت سافيرا على ذكره عدة مرات مؤخراً...

كان قد وصل إلى مكتبه لتوه، عندما جاءت سافيرا، دفعت جاب من طريقها ثم جلست على كرسي أمام المكتب وهي تقول: «ها قد جئت إذن.» وأمعنت النظر في وجهه: «يبدو عليك التعب،

ستصبح عجوزاً قبل ان تدرك أين انت، يا إيديريك، انك تقتل نفسك. وهذا محتمل جداً. ماذا يقول المثل الانكليزي (العمل دون لهو، يجعل المرء بليداً بطيء الفهم) وانت بليد بكل تأكيد، يا عزيزي.» ونظرت اليه مرة أخرى، ثم ضحكت بضيق واضافت: «فكرت في أن علينا ان نتحدث، فهناك اشياء أحب أن اقولها وربما كان عليّ أن اقولها منذ أسابيع. وهي اننا غير متلائمين، يا إيديريك، آه، اننا شخصان جميلان، ولديك منزل حسن... بل في الحقيقة باعتبار ذلك المنزل المدفون في البراري... كما ان لديك مالاً كافياً يسمح لي بأن اعيش كما أهوى، انما فقط ليس في امكاني ان افعل هذا، اليس كذلك؟ ان الحياة معك ستكون بليدة مظلمة...» وسكتت، ثم نظرت إليه لتشتبك نظراتها بنظراته الثابتة، ثم تتحول عنها بعد لحظة. ثم تقول بصوت عالٍ قليلاً: «إذا أردت الحقيقة، ان الضجر سيتملكني حتى الموت إذا أنا تزوجتك.»

تكلم الدكتور ريجنما تير ساليس بهدوء ومع هذا كانت لهجته تنطق بالمودة: «في هذه الحالة، يا سافيرا ساكون آخر شخص يلزمك بتنفيذ عهدك. وأنا واثق من انك ستعثرين على الانسان الذي يمكنه ان يعطيك الحياة التي تتمنينها.»

«آه، لقد عثرت عليه. انه بيي فان تويست. انه مجنون بي...» واضافت بدهاء: «ولكنك لم تكن كذلك أبداً...»

«انني أرى الآن أنني لم اكن اصلح قط لأن اكون زوجاً لك، يا سافيرا. وأنا مسرور إذ اعلم انك ستكونين سعيدة في حياتك.»

«آه، ان ذلك ما لن اخطىء في الحصول عليه، اما انت فانك ستبقى تعمل وتعمل على مدار الساعة واستطيع ان أرى مستقبلك خامداً مظلماً.»

فكان الدكتور ريجنما تير ساليس من الدهاء بحيث أوما يوافقها على رأيها بوداعة، ثم قال لها: «ارجوك ان تحتفظي بالخاتم.» كان خاتم الخطبة عبارة عن ماسة كبيرة كانت قد فضلتها على خاتم الأسرة المتوارث والذي كان عبارة عن ماسة نافرة قديمة الطراز وحجر من الياقوت الأزرق.

نهضت واقفة، فنهض هو أيضاً مستديراً حول المكتب، وكانت هي تقول: «انني ذاهبة لقضاء عطلة آخر الأسبوع يا إيديريك. لا تنس نشر خبر في الصحف عن فسخ خطبتنا. من المحتمل ان نلتقي احياناً من وقت لآخر.»

«طبعاً، وأنا اتمنى لك كل السعادة، يا سافيرا.» مشى معها إلى الباب، وهو يقول: «هل ستذهبين مشياً على الأقدام؟ اتريدين أن أوصلك بالسيارة؟»

«ان بيي ينتظرني في موقف السيارات القائم آخر الشارع. الوداع يا إيديريك.»

وسرعان ما تبدد شعوره بالارهاق، فقام ليلتهم وجبة دسمة تحت نظرات جاب الذي كان لا ينفك عن النظر إليه، ثم لم يعد يستطيع البقاء في البيت، فأخذ يتمشى في شوارع المدينة. وباتش بجانبه. وعندما عاد إلى المنزل، دخل جاب إلى القاعة، قائلاً: «هل أحضر القهوة قبل ان تأوي إلى فراشك يا سيدي...؟ لا بد انك متعب.»

«انني لست متعباً أبداً، ولكن مرحباً بالقهوة.» فذهب جاب إلى المطبخ قائلاً لزوجته: «لا بد أن السيد قد سمع خبراً طيباً. فانا لم أره من قبل بهذه البشاشة. نرجو ألاّ يكون قد صمم على الزواج، على الأقل ليس من خطيبته.»

وسكت لحظة، ثم عاد يقول: «تلك الفتاة الانكليزية التي

كانت جاءت لتعمل في بلدنا هذه...» وابتسم لهذه الفكرة. «انها سيدة طيبة تصلح له.»

قالت زوجته: «لكنها عادت إلى انكلترا للأسف.»

قال: «ان الحب يذلل كل شيء.»

• • •

لم تكن أوجيني تعيسة في عملها. كما أن الآنسة باركس بقيت على عزلتها، وكان سلوكها يوحي بأن على أوجيني ان تتصرف كسيدة راقية... وعلى كل حال، فقد كان الدكتور، رغم حدة طبعه احياناً، رجلاً طيباً، وقد كان لديه من كثرة العمل ما يشغلها على الدوام عن مشاعر الأسى نحو نفسها، ولكنها كانت تتمنى احياناً، في الأمسيات، لو انها في قريتها دارتمور ومعها ايديريك.

عادت إجازة آخر الأسبوع مرة أخرى، فعادت إلى البيت بعد الظهر مباشرة، لقد كان العمل كثيراً في الصباح، ولكنها الآن متفرغة إلى صباح الاثنين، ورأسها مليء بالخطط. فهناك وقت تأخذ فيه أمها للتسوق إذا شاءت، ثم تناول الشاي، وبعد ذلك التمشي قبل العشاء. أما الأحد فلا يتغير إنما صباح الاثنين يكون لديها وقت كافياً يمكنها فيه ان تدير غسالة الثياب قبل الذهاب إلى عملها، إذ ان الدكتور ساوبير كان قد اخبرها ألاّ تذهب إلى العمل صباح الاثنين قبل الحادية عشرة حيث انه لا يأتي إلى العمل قبل الظهر.

استدارت بسيارتها حول زاوية المنزل، ثم دخلت من باب المطبخ، وكانت أمها هناك تصنع شطائر فرفعت وجهها

تتلقى قبلة ابنتها على خدها وهي تقول: «لم اسمع صوت سيارتك، يا عزيزتي.»

قالت أوجيني: «هل تريدين الخروج للتسوق؟ لدينا الكثير من الوقت...» ووقعت عيناها على طبق الشطائر. «هل هناك من سيتناول عندنا الشاي؟»

أجابت أمها باستسلام: «حسناً، ليس تماماً، لقد جاء جوشا واطس للاطمئنان على صحة أبيك، واخشى أنه مصمم على قضاء ليلته هنا.»

«أمي، كلا... لماذا لم يأت اثناء الأسبوع؟ هل سيتأخر؟»

«كلا يا عزيزتي، سيمضي الليل فقط. انه يريد ان يبقى لحضور كشاف الأحد، ثم يرحل بعد الظهر. حسناً، كان قال انه سيرحل عند العصر، ولهذا اظنه سيتناول معنا الشاي كذلك.»

ورأت الأم ملامح الاستياء على وجه ابنتها، فقالت: «كوني لطيفة معه، يا عزيزتي، ولا تجعليه يكدر أباك.»

«هذا صحيح. أليس هناك أندية للعب الورق أو ما أشبه فنرسله إليها ليمضي المساء؟»

«كلا يا حبيبتي، ففي هذا الجو الرائع، كل الناس تخرج من بيوتها... فنحن لا نفتح نوادي الألعاب والتسلية الا عند حلول الخريف.»

أخذت أوجيني تمسح قطع الخبز بالزبدة وتضم كل اثنتين معاً قائلة: «لن اقص حوافي الخبز. إنه يملك اسناناً في فمه.»

قهقهت الأم ضاحكة: «لا تجعلي الاستياء يستولي عليك يا عزيزتي. انني ادرك ان وجوده مزعج لك، ولكن هذا اليوم واحد فقط.»

«من حسن الحظ انني لن اعود للعمل قبل صباح الاثنين، ان لدينا مساء الأحد نستمتع به على الأقل.»

«نعم يا عزيزتي، انه في مكتب والدك منذ الغداء. هل يمكنك إبعاده من هناك لكي يتمكن أبوك من مراجعة كلمته التي سيلقيها غداً الأحد؟»

«طبعاً، سأخذه لنزهة على الأقدام. وتايغر سيسره هذا على كل حال.»

وقف الاستاذ واطس احتراماً عندما دخلت اوجيني مكتب أبيها. «ما اجمل ان أراك مرة أخرى.» وتقدم يصافحها، فقالت بلهجة عادية: «مرحباً، يا جوشا.» وهزت يده بحزم ثم تقدمت تقبل أباها قائلة: «هل انت مشغول بكتابة كلمتك؟ سآخذ جوشا للنزهة إلى أن تنتهي من كتابتها.»

فوافق الاستاذ واطس على كلامها بلهفة، وهكذا قادته إلى الخارج من خلال باب المطبخ حيث صفرت للكلب تايغر، وغمزت بعينها لأمها وهي تمر بها خارجة بخطوات سريعة نشيطة.

قال الاستاذ واطس وهو يحاول مجاراتها في خطواتها بصعوبة: «ان الجو حار بالنسبة إلى السير على الأقدام.»

«انك ستستمتع به بعد ذلك المكان الخانق الذي تسكن فيه.»

«حسناً، ان الهواء النقي شيء حسن، ولكن نقص اسباب الراحة...»

«اتعني الباصات والقطارات وصفوف المتاجر؟»

فوافقها على ذلك. بحماس: «نعم، نعم. هو ذاك. انني متأكد من انك إذا سكنت فترة في مدينة كبيرة فستستمتعين بفوائدها.»

«حسناً، لن استمتع بذلك.» وألقت عليه نظرة. كان يبدو غاية في الرزانة. وتمنت ألاّ يكون قد ظن أنها دعته إلى هذه النزهة تشجيعاً له وتقرباً إليه.

ويبدو أن هذا ما ظنه حقاً. لأنه تابع يقول: «ان لديّ منزلاً صغيراً جميلاً، وهو قريب جداً من المدرسة، وهناك حديقة عامة صغيرة تبعد عشر دقائق مشياً، فقط. وأظن انه ربما وجدت وقتاً تفكرين فيه بالأمر، يا أوجيني، ومن ثم تدركين أي مستقبل رائع سيضمنا معاً.»

سألته أوجيني: «لماذا تقول ذلك؟ لماذا علينا أن نسعد دوماً بذكرى هذا اليوم؟ فنحن لا نفعل سوى القيام بنزهة سيراً على الاقدام.»

«آه، هل تفهمين اللغة اللاتينية؟ كنت مستعداً لترجمتها لك.»

أجابت بخفة: «لا لزوم لهذا، ولعلك نسيت أن أبي هو عالم متمكن في اللغة اللاتينية.»

وأسرعت بخطواتها مرة أخرى، فأسرع هو يجاريها في ذلك، وهو يقول: «هل لي ان أرجو انك غيرت رأيك؟ انني على استعداد لأن اجعلك زوجتي...»

لم تشأ أن تجرح مشاعره. فقالت: «انك بالغ اللطف، ولكن هذا الأمر غير ممكن، فأنا لا احبك، يا جوشا، وانني واثقة من انك ستعثر قريباً على فتاة تحبها وتحبك وتسعدان معاً.»

قال مفكراً: «نعم، هذا ممكن، طبعاً، ان لدي الكثير مما يمكنني تقديمه، كما انني رجل طموح.»

فقالت: «اخبرني عن طموحاتك هذه.» وهكذا أخذ يملأ اذنيها، طوال طريق العودة، بأفكاره وخططه.

وفي المطبخ اخبرت أمها، وهي تساعدها في اعداد العشاء، عن تكرار جوشا عرضه الزواج عليها.

«لقد أخذ يستشهد بأبيات من الشعر باللاتينية، عن وجوب تذكر هذا اليوم، بقلب سعيد. ولكنه لم يكن يعني ذلك حقاً، واظنه كان يحاول التأثير عليّ. لقد قدمت إليّ عدة عروض للزواج ولكن لم يكن بينها عرض نسيه صاحبه بسرعة، مثل هذا العرض.»

فقالت أمها: «حسناً، أرجو لك حظاً أحسن بالنسبة للعرض التالي لهذا، يا عزيزتي.» ونظرت إلى وجه ابنتها بإمعان. فقالت أوجيني بشيء من السرعة: «آه، ولكنني افضل ان ابقى فتاة عاملة.»

رحل الاستاذ واطس نهار الأحد بعد تناول الشاي، مما لم يترك من تلك الإجازة سوى القليل، ولكنها على الأقل، تمكنت من الخروج في نزهة سريعة مع تايفر صباح الاثنين، ذهبت بعدها إلى النزل الذي تقيم فيه ومن ثم إلى العيادة، حيث حيتها الآنسة باركس على عادتها المتزمتة، ولكن الدكتور ساوبير كان بشوشاً مرحاً، وقد فاجأته ينظر إليها مرة أو اثنتين وكأنما هناك ما يبعث التسلية في نفسه، وعندما احضرت له قهوته، سألها: «لقد نسيت تماماً أن اسألك ان كنت رأيت صديقي القديم الدكتور ريجنما تير ساليس عندما جاء لزيارتي منذ فترة قصيرة. هل كنت تعملين لديه؟»

«نعم، هذا صحيح، وقد رأيته، فقد جاء لزيارتي عند السيدة بروبير التي انزعجت لهذا. فهي لا تسمح بزيارة الرجال.»

فقال وهو يضع السكر في قهوته: «إنما لا بد أنها سمحت له بالدخول.»

«نعم. لأنه صديقك، يا سيدي، وعضو في الهيكل الطبي.»

«إنني مسرور لسماع أن السيدة بروبير تعتني بنزيلاتها بهذا الشكل. هل أنت مرتاحة هناك؟»

«نعم. شكراً لك.»

«انك تضيعين أيامك هنا، طبعاً. فإن فتاة يمكنها العمل كما عملت في البوسنة، تستحق وظيفة مستشفى درجة أولى.»

قالت: «نعم، ولكنني يجب أن أكون قريبة من والديّ.» وأضافت بسرعة: «هل أنت غير راضٍ عني يا دكتور ساوبير؟»

«آه، أنا لم أقصد أن تفهميني بهذا الشكل فأنت أحسن ممرضة عملت عندي. ويمكنك أن تبقي هنا إلى الأبد. ولكن على فرض أنك تزوجت ماذا سيكون من أمر والديك عند ذاك؟»

«حسناً، سوف اتزوج من رجل لا يمانع في أن أرعى والديّ. ومن المحتمل ألاّ أجد مثل هذا الزوج.»

فقال الدكتور بلهجة عفوية: «آه، لا أدري. أدخلي إليّ السيدة سيمونز لافحصها، من فضلك.»

وضع الدكتور ريجنما تير ساليس خطته بنفس الدقة والعناية التي يظهرها في غرفة العمليات، وقد جعله الحب العميق يبذل قصارى جهده في ذلك، ولكن بما أنه كان من الضروري ان ينتظر إلى حلول إجازة نهاية الأسبوع، فقد تابع عمله في المستشفى بهدوء إلى أن حل مساء الجمعة، حيث استقل سيارته وسار بها إلى كاليه ومن هناك أبحر إلى دوفر ومن ثم سار في الليل حتى وصل إلى منزل الدكتور ساوبير في توركواي.

كان الوقت متأخراً، ولكن صديقه كان قد بقي مستيقظاً لاستقباله.

قال له صديقه: «لقد أرسلت زوجتي إلى فراشها، انها امرأة لطيفة، كما تعلم، ولكنها تحب الثرثرة مهما كان الوقت متأخراً. أوجيني ستأتي إلى العيادة في الصباح حيث تستعد للذهاب إلى منزل السيدة بروبير بعد الظهر، طبعاً. من أين تنوي اخذها؟»

«من منزل السيدة بروبير. يمكنني وضع سيارتي في المنعطف حيث لا تبدو للعيان.»

أخذ الدكتور ساوبير يضحك بصوت خافت: «نرجو ألاّ تعيدك من حيث أتيت، يا إيديريك.»

«لن أدع لها مجالاً لذلك.»

أسرعت أوجيني إلى منزل السيدة بروبير ناوية الذهاب إلى بيتها بأسرع ما تستطيعه. فغيرت ملابسها، ثم هبطت السلالم بسرعة واندفعت خارجة من الباب لتصطدم بصدر الدكتور رينجما تير ساليس. كان ذلك أشبه بالاصطدام بجذع شجرة، وقالت: «اهذا انت؟» لقد تملكها السرور لرؤيته، ولكنها اخذت تبحث عن كلمات جارحة تقولها له...

ابتسم قائلاً: «انه أنا في الواقع، هيا بنا، ان سيارتي هناك.»

«سيارتك؟ انني اذهب إلى بيتنا بسيارتي.» فلم يهتم بكلامها، وانما أمسك بذراعها يقودها بلطف إلى سيارته البنتلي حيث أجلسها فيها.

سألته: «لماذا انت هنا؟» واضافت بنزق: «أما كان يجب ان تكون سافيرا معك؟»

فضحك قائلاً: «لماذا تفترضين ذلك؟ ان سافيرا حسب علمي، تمضي إجازة في جنوب فرنسا، ولكن بما اننا لم نعد مخطوبين، فانا لم أعد أعرف اخبارها.»

«غير مخطوبين؟ لماذا حدث هذا؟ لقد كانت مناسبة لك تماماً، آه، أرجو ألاّ يكون ذلك لأنكما تشاجرتما بسبب قولها لي انك كنت تريد ان تجعلها تغار.»

قال بلطف: «لم أتشاجر معها قط. وإنما كنت قد ادركت منذ زمن أنني لن اتزوج سافيرا أبداً. وقد انتظرت إلى أن توصلت هي أيضاً إلى نفس هذا الاستنتاج. لقد رأت انني مشغول دوماً، ودوماً أرفض الذهاب إلى حفلات ليس لها نهاية، وأريد من زوجتي أن تهديني مجموعة من الأولاد الأصحاء.»

فقالت له مستفهمة: «ولكن ألم تكن تحبها.»

«ربما كنت أحبها قليلاً ولكن ذلك كان مختلفاً كثيراً عن الوقوع في غرامها، فانا نادراً ما كنت افكر فيها عندما لا نكون معاً، ومنذ ذلك الحين، اكتشفت ان الشخص عندما يكون مغرماً حقاً، فإن أفكاره لا تبارح شخصية محبوبه.»

«لماذا تخبرني بكل هذا؟ ألم اقل لك انني لا اريد ان اراك مرة اخرى؟»

«انني أمهّد الطريق لما سيأتي.»

وأبطأ من السير، ليقف على جانب الطريق المعشوشب، ثم استدار ينظر إليها قائلاً: «هل كنت تعنين حقاً انك لا تريدين ان تريني مرة أخرى، أم أنه مجرد كلام؟ هنالك فرق بين الاثنين.»

واشتبكت عيناهما، لم يكن بمقدورها ان تحول عينيها بعيداً، هذا إلى انها لم تكن كذابة ماهرة، فقالت: «كان كلاماً فقط.»

واهتزت للرقة التي بدت في ابتسامته، ولكنه لم يقل شيئاً، وإنما عاد يتابع السير.

لم تعد تحتمل الصمت، فسألته: «هل انت في إجازة؟»

«نعم، لمدة ثلاثة أيام.» وانتظرت أن ينطق بالمزيد، ولكن بما أنه لم يفعل عادت تقول: «هل انت تعمل في المستشفى في لندن؟»

«كلا، انني اعمل حالياً في غرونينجن. وأنا اتوقع ان احضر إلى هنا في ظرف اسبوعين. كيف تستمتعين بعملك بعد أن استقررت الآن؟»

لم يكن يريد الحديث عن نفسه. فقالت: «انني راضية تماماً به.» ثم اخلدت إلى الصمت مرة أخرى وعند الوصول إلى البيت، نزل من السيارة، وفتح لها بابها ثم تبعها إلى الباب المفتوح حيث كانت أمها تنتظر. وبعد أن عانقت الأم ابنتها، قالت: «هل ستبقى للغداء، يا إيديريك؟ تفضل بالدخول. يا له من يوم جميل، وما أروع هذا الصيف الذي يمر بنا. ان أباك في مكتبه يا أوجيني. هل لك أن تخبريه بان الغداء جاهز؟»

قادت الدكتور ريجنما إلى غرفة الجلوس، ثم ابتسمت له فجأة، قائلة: «هل سار كل شيء وفقاً لخطة مرسومة؟»

«نعم، تماماً كما كنت أتمنى، يا سيدة سبنسر. هل تمانعين إذا أنا غادرت بعد الغداء؟»

أمعنت النظر في وجهه الهادىء: «ولكن هل ستعود؟»

«نعم. هل تدعينني إلى طعام الإفطار؟»

«بكل سرور، يا إيديريك.» واستدارت حين دخلت أوجيني الغرفة. فقالت بمرح: «كنت احدث الدكتور رينجما تير ساليس عن منظر غروب الشمس الرائع الذي نراه من هنا.» غادرهم بعد الغداء وحياها تحية عادية وهو يصعد إلى

سيارته. أخذت أوجيني تنظر إليه مبتعداً وهي تغالب دموعها، متلهفة إلى الركض خلفه متوسلة إليه للبقاء.

لم يكونوا يطيلون السهر في البيت. وكان بإمكانها ان تذهب للفراش مبكرة، مما كان يسمح لها بالإستلقاء مستيقظة لكي تأخذ في إراحة نفسها بالبكاء. ونامت حتى الفجر لتستيقظ متورمة الأجفان. لا شك في ان نزهة سريعة ستعدل من منظرها. وارتدت أول ثوب وقع في يدها، وكان ثوباً قطنياً أحالت لونه السنوات. وحذاءً قديماً. نزلت السلم بهدوء وهي تنظر بشوق إلى فنجان شاي، إنها ستشربه حين عودتها، وكان الوقت مايزال السادسة والنصف... ثم خرجت من الباب الخلفي.

كان الدكتور ريجنما تير ساليس جالساً على دلو مقلوب، فنهض لدى رؤيتها يحييها بوجه باش، ثم اضاف بنفس البشاشة: «هل كنت تبكين؟»

كان في سؤاله هذا، وهي الشاعرة بالنكد والتبرم لقضائها ليلة سيئة من ناحية، ومن ناحية أخرى لمنظرها الذي كانت تعلم أنه لا يظهرها جميلة، كان في هذا القشة التي قصمت ظهر البعير، كما يقال، فصرخت فيه: «آه، اذهب. ابتعد عني.» واستدارت لتعود ركضاً إلى البيت لولا ان الكلب تايغر الذي كان متكئاً عليها منتظراً الذهاب معها للنزهة، رفض ان يتحرك.

وبعد دقيقة، عادت فسألته: «ألم تذهب إلى فراشك؟» كان هذا سؤالاً سخيفاً، انما كان يبدو وكأنه رقد الليل بطوله وهو يقف أمام منزلها.

ولكنه ابتسم فقط وقال لها: «تأتين معي؟» وسار بها

خارج بوابة الحديقة إلى الأرض السبخة خلفها، «طالما حلمت في أن أكون هنا معك في هدوء الصباح الباكر، يا حبيبتي. في البداية، كان هذا حلماً فقط، ولكن من الممكن أن تتحقق الاحلام، أليس كذلك؟ رغم أنها احياناً، بحاجة إلى معونة قليلة.»

كانا يسيران في ممر ضيق بين الحشائش المشذبة الكثيفة، كما كانت الشمس الآن دافئة مشرقة، ووقف الدكتور ريجنما تير ساليس يديرها نحوه. «منذ رأيتك لأول مرة في دارتمور، لم استطع نسيانك. لقد بقيت في أفكاري منذ ذلك الحين. انني احبك، يا غاليتي. انني أريدك زوجة لي، زوجة أحبها وأرعاها إلى آخر لحظة في حياتي.»

ابتسمت له، وقالت: «انني احب أن اكون موضع رعاية، كما انني احب كثيراً ان اكون زوجة لك، يا إيديريك. لقد احببتك طوال الوقت الذي عرفتك فيه. انني...»

قاطعها قائلاً: «لا داعي للكلام. فقط أجيبي، هل انت موافقة على الزواج مني؟»

نظرت إليه وقالت: «اجل يا حبيبي. سأكون زوجتك وسأنجب لك الكثير من الاطفال.»

تمت